علي بن جابر الفيفي

إلى الظل

قوانين للحياة

الطبعة الأولى
دار الحضارة للنشر والتوزيع

علي بن جابر الفيفي



إلى الظل

قوانين للحياة

ح دار الحضارة للنشر و التوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الفيفي، علي بن جابر
إلى الظل (قوانين للحياة)./ علي بن جابر الفيفي - ط١- الرس ١٤٤١هـ
ص ٢٠٤؛ ١٤×٢٠سم
ردمك: ٧- ٧٦- ٨٢٩٠- ٦٠٣- ٩٧٨
١-الوعظ والإرشاد أ- العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٤١/٧٤٠٦

رقم الإيداع: ١٤٤١/٧٤٠٦
ردمك: ٧- ٧٦- ٨٢٩٠- ٦٠٣- ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

تصميم و إخراج
Mustafa-h123 @hotmail.com

دار الحضارة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
@daralhadarah 0551523173
زوروا متجر الحضارة: hadarah.store
متجر الحضارة
HADARAH • STORE


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

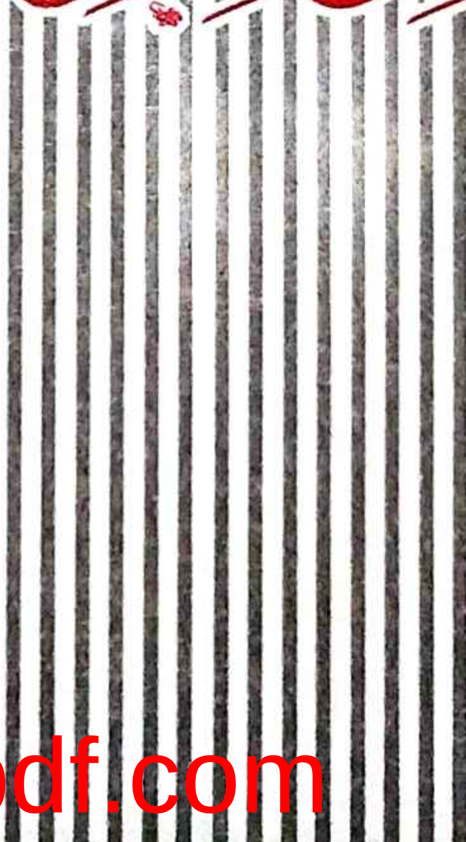
إلى ذلك الطفل، الممسك بمصحفه، في زاوية من زوايا المسجد الأقصى..

وصوته وهو يرتّل كلام الله، يصنع غده، وحلمه، وصموده الأبدي..

علي بن جابر الفيفي



إلى الظل



المقدمة

الحمد لله كما يرضيه، والحمد له على ما يمُنّ به ويعطيه، ثم الصلاة والسلام على الهادي البشير، والسراج المنير، الذي لولا هديه لضللنا، ولولا سنّته لزللنا.. وبعد

فهذا كتاب «إلى الظل» أردت به أن نتولّى أنا والقارئ العزيز إلى الظل كما فعل موسى عليه السلام، وأن نقتدي بهداه كما أمر الله تعالى نبيّه، وأمرنا تبعًا لذلك حين قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾..

فقد فتحت بهذا الكتاب نافذةَ استهداءٍ واعتبارٍ على قصّة نبيّ الله موسى عليه السلام وهو من الأنبياء الذين قال عنهم سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فقصصهم عليهم السلام ظرف ومكان لاكتظاظ العبر والحكم والدروس، وقصّة موسى عليه السلام بصفة خاصّة مليئة بهذه العبر والدروس، لا سيّما وقد تكرّر ذكرها في القرآن كثيرًا، وبتنا نعرف تفاصيل التفاصيل عن سيرة هذا النبي العظيم عليه السلام.

ولا أظـن قارئًا لقصة موسـى ﷺ لا يجـد -كما وجدتُ- ذلـك القـدر الكبير من الأضـواء التي تنكشـف من خلالها عشرات بل مئات الدروس والعبر، وكل كلمة أو جملة أجد فيهـا -وأظـنّ أن الكثير يجـدون فيها- ما يمتـزج مع الروح فيغدو زكاة لها، وطهرة لأرجائها.

وقفاتي مع النبي الحبيب الكريم موسى كثيرة وقديمة، وتأمّلاتي في قصّته تتمظهر بأشكال متعددة، ولكنني في هذه التجربة التدبّريّة التأمّلية قررت أن آتي على الكلمة أو الجملة مما وقع في قصّة موسى، ثم ومن قبس نورها أضيء زوايا في حياتنا.

اشترطت على نفسي أن تكون هذه الجملة القرآنية مذكورة في قصّة موسى، سواء كانت من كلامه ﷺ أو كلام شعيب ﷺ أو كلام غيرهما، فالمقصود أن تفاصيل ما حدث وما قيل جاء في سياق هذه القصّة العظيمة، التي لا تنقضي عجائبها، ولا تفنى غرائبها.

ليس من مقصودي سرد القصّة، فهي معروفة، ولا الوقوف طويلًا على ما قاله المفسّرون عن معاني تلك الجمل القرآنية، إذ إنّها واضحة بيّنة، تحتاج استهداء بهديها،

واستضاءة بنورها، لا كشفًا عن معناها، ولا غوصًا في مبناها.

وقد كنت أنهيت هذا الكتاب قبل أكثر من ثلاثة أعوام، ولكنّ الهمّة قعدت بي عن إنجازه وتنقيحه، وها قد أفاء الله عليّ بفضل دعوات أهل الفضل من القرّاء الكرام، فعدت إلى هذه الوريقات مراجعة، وتنقيحًا، وحذفًا، وإضافة.. ولا أدّعي الكمال، ولا حتى مقاربة له، ولكنّه جهد المقل، الضعيف، الفقير إلى ربّه.

أسأل الله أن تكون أسطر هذا الكتاب معينة للقارئ الكريم حتى يجعل كتاب الله مرشده وهاديه، ويجعل قصص الأنبياء مَعينَه الثرّ، وجذوته النيّرة حيث الماء الهنيء، والقبس المُضيء.

أسأل الله أن ييسر ويوفّق، وأن يبارك في هذا الكتاب، وأن يجعله ذخرًا لكاتبه، وقارئه، ويغفر به لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين إنّه جواد كريم.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

علي بن جابر الفيفي

٦/٦/١٤٤١هـ



﴿يترقَّبُ﴾





لا تُنسك لذّة الفاكهة التي في يدك، هوّة الحفرة التي بالقرب من قدمك!





قانون ١

﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

في معنى «يترقب» يقول ابن كثير رحمه الله: «أي: يتلفّت»[1] وقال الزمخشري رحمه الله: «يترقب التعرض له في الطريق، أو أن يلحق»[2].

كان يمشي موسى عليه السلام في شوارع المدينة، فإذا بشجار قائم بين رجلين، أحدهما من شيعته (بني إسرائيل)، والآخر من عدوّه (قوم فرعون)، فاستغاثه الإسرائيلي، الذي كان الجانب الأضعف في ذلك الشجار، فهُرع إليه موسى عليه السلام مجيبًا ومغيثًا، فوكز موسى ذلك المصريّ وكزة تسبّبت في موته!

---

(١) تفسير ابن كثير، ت سلامة (٦/ ٢٢٦).

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٤٠٠).

هذا الخطأ غير المتعمّد كان سببًا في أن يغدو موسى المطلوب الأوّل لدى القصر الفرعوني، مما جعله يتحرّك بتوجّس وترقّب، خشية أن يُقبض عليه ويُنفَّذ فيه حكم جائر لا يفرّق بين العمد والخطأ.

ثم لما جاءت الأخبار لموسى تؤكّد له أنّ الملأ يأتمرون به ليقتلوه، ما كان منه عليه السلام إلا أن غادر مصر إلى مدين.

وهنا يظهر لنا قانون من قوانين موسى عليه السلام في الحياة، إنّه قانون «يترقّب» لنتعلّم منه فنّ الحذر، وأخذ الحيطة، وقراءة الواقع قراءة واعية لا يمنعها عنصر التفاؤل، من استخدام تقنية التوجّس عند الحاجة لها.

كن ذكيّاً

عليك أن تكون ذكيّاً، لا تكن كما يقال: أذن من طين، وأخرى من عجين، بل افتح أذنيك، وحدّق بعينيك، وكن متبصّرًا بما قد يقع بك أو بدعوتك أو بأهدافك.

ليس من الشجاعة أن تلقي بنفسك إلى التهلُكة بحجّة

أنّك لا تخشى في الله لومة لائم، فإن الله الذي أمرك ألّا تخشى غيره هو من أمرك بأخذ الحذر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١].

ولك أن تتساءل: لماذا أمر الله بصلاة الخوف في الحرب؟ أليس من باب أخذ الحذر والحيطة؟ وشدّة التيقّظ والترقُّب؟

لا ينبغي للأذكياء أن يدعوا أهدافهم يتناوشها أصحاب الهمم الدنيئة ثم لا يتيقّظوا ويترقّبوا، بل يجب أن يُحيطوا أهدافهم بقدْرٍ من الذكاء، وبقدرِ أهميّة الهدف، يكون الترقّب والحذر.

فأخْذُ الحيطة والحذر من شريعة الله الذي لا ينبغي أن نخشى فيه لومة لائم.

التهوّر واقتحام الأمور بلا تأمّل هو إلى الغباء أقرب منه إلى الشجاعة! ولن يخلّد التاريخ غبيّا يضيّع أهم ما يملك لأجل طيبة زائدة!

يقــول سبحانه وتعــالى منبِّهاً نبيه الكريم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]. ويقـول لـه: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، فكن متيقظًا لمكائدهم، لا تُحسن الظن بمن أساء بالله الظن.

صفّارات الحذر

وفي قصّة أصحاب الكهف درس في الترقُّب والتيقّظ وإطلاق صفارات الحذر في النفس، يقول أحد الفتية عندما استيقظوا وأرادوا أن يرسلوا أحدهـم ليأتيَهـم برزقٍ منه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾!

هذا التلطّف هو من أعظم تجليات الترقّب..

كن ذكيًا، خفيف الحركة، لا تلفِت الأنظار إليك..

لا تُثرْ عشّ الدبابير الذين يتربّصون بأفكارك.. دعهم ليكمِلوا نومهم بهدوء.

النبي مترقّبًا

في ليلة الهجرة، عندما أحاط المشركون ببيت النبي ﷺ ليقتلوه، لم يقل النبي ﷺ وهو أعظم الناس إيمانًا بموعود ربّه: سأخرج هكذا دون أي تلطّف وترقّب، وليكن ما يكون! لا، بل جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينام في فراشه، وواعد عبد الله بن أريقط[1] بعد ثلاث ليال، ومكث هو وصاحبه في الغار مدّة، وفعل أمورًا من الترقُّب والتلطُّف والحذر ليرسم لنا درسًا في النباهة والتخطيط الجيّد.

وفي الهجرة النبوية كان عبد الله بن أبي بكر يترقّب في مكة ثم يأتي متلطفًا ويوصل أخبار الطلب إلى النبي ﷺ وصاحبه.

وفي المدينة النبوية كانت حاسّة الترقُّب والتلطُّف والتيقّظ مرتفعة!

لا يقتل النبي ﷺ بعض المنافقين المساهمين في نخر المجتمع الإسلامي حتى: «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[2].

---

(١) وهو الدليل الذي سيهديه إلى طريق المدينة.

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٨٤).

إذن لا تصنع بأفعالك قالة سوء يحاربك أعداؤك بها.

ويقول لزوجه عائشة رضي الله عنها: «**لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام**»[(١)].

إذن لا تزرع الشكوك، ولا تُعن الظنون السيئة عليك.

وقانون الترقُّب كان حاضرًا في مغازيه عليه الصلاة والسلام، فقد كان يورّي عن الغزوة بغيرها، وكان يرسل العيون ليأتوه بخبر العدو.. فقد أرسل اثنين من أصحابه في غزوة بدر ليأتوه بخبر عير قريش، وفعل مثل هذا في غير غزوة بدر.

وكان حريصًا أن يعرف عدد الكفار في هذه الغزوة العظيمة، فقد أسر المسلمون اثنين من قريش، فسألهما النبي صلى الله عليه وسلم كم عدد الكفار؟ فلم يعرفا العدد، فغيّر عليه الصلاة والسلام سؤاله وقال: «**كم ينحرون كل يوم**»؟ قالا: يوما تسعًا، ويومًا عشرًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**القوم فيما بين التسعمائة والألف**»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ١٤٦).

(٢) الروض الأنف، ت السلامي، (٥/ ٧٤).

وفي يوم الخندق أرسل حذيفة بن اليمان ﷺ ليستطلع له أمر المشركين، على ألا يهيجهم، فقط ليترقّب.

اليوم الأسود

وما زال هذا الترقب والتلطُّف والذكاء حاضرًا في جميع أدوار التاريخ الإسلامي، مع الخلفاء والملوك والأمراء والقادة والعلماء.

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «**لست بالخبّ ولا الخب يخدعني**».

لا تكن خبيثًا، ولا تترك الخبثاء لينسجوا حولك خدعهم وترّهاتهم، أرهم يومًا أسود من تيقظك وترقبك، واقطع طريقهم قبل أن يصلوا إليك، إلى أهدافك، إلى دعوتك، إلى أشيائك الثمينة.

يقول ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه ونوّر ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان

معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرّم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس، وسبي الذرية، وأخذ الأموال، فدعهم»[1].

فلسفة ابن تيمية بيّنها بأن ضرر شربهم الخمر أخف بكثير من ضرر إفاقتهم ثم انصرافهم إلى المسلمين قتلًا وأذى، هذا من الذكاء المطلوب من الداعية والمربي والفقيه والمسلم.

وها هم الشعراء ينسجون هذه المعاني الذكيّة في شعرهم، لتكون دروسًا للأجيال المسلمة:

يقول الأول:

احـــذر عـــدوّك مـــرّة
واحذر صديقــك ألف مرّةْ

فلـربـما انـقـلـب الصديـق
فكـــان أعلـــم بالمضـــرّةْ

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١٣).

ويقول الآخر:

عرفـــت الشـــرّ لا للشـــرّ
لكـــن لتـــــوقّيـــــهِ

ومـــن لا يعـــرف الشـــرّ
مـــن الخيـــر يقـــع فيـــهِ

وهذا كلّه يجعلك تستثمر هذا القانون في حياتك، فتكون مترقبًا بلا مبالغة، وحذِرًا بلا هلع، فبستان الحياة وإن كان مليئًا بأشجار التفاح والبرتقال والفراولة، إلا أنّ فيه بعض الأشواك، والحفر، والعقارب، فلا تُنسِك لذّة الفاكهة التي في يدك، هوّة الحفرة التي بالقرب من قدمك.





﴿ما خَطْبُكُما﴾





كن العطر الذي يستنشقه الجميع، ولا يرونه!





قانون ٢

﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣].

يقول الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾: «سؤال عن قصتهما وشأنهما إذ حضرا الماء ولم يقتحما عليه لسقي غنمهما»[1].

وصل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الهارب من بطش فرعون إلى «مَدْيَن» خائر القوى، منهك النفس، ضعيف الحيلة، فكان أوّل مشهد تشاهده عيناه وينقله لنا القرآن الكريم، أنّه رأى أمّة من الناس يسقون، وبالقرب منهم امرأتان تنتظران الرعاة أن يفرغوا من السقي، وتذودان غنمهما، فتوجّه موسى إليهما

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٠٠).

سائلًا لهما عن شأنهما قائلًا: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ فأجابتاه بأنهما تنتظران الرعاة أن ينصرفوا، مما يسبب لهما التأخّر، وأضافتا: أنّ أباهما شيخ كبير، لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمّة الصعبة.

فما كان من موسى وهو على حالته المنهكة المتعبة إلا أن تحمّل عبء مزاحمة أولئك الرعاة ليسقي لهاتين الفتاتين، كل ذلك حزنًا على ضعفهما ووقوفهما مدّة انتظار طويلة.

كان موسى ﷷ في تلك اللحظات التي سأل فيها الفتاتين عن خطبهما خائر القوى، منهك النبضات، للتوّ وصل من سفر مرهق، وتلاحقه أنباء إهدار فرعون لدمه، ومع ذلك لم تُلهه آلامه النفسيّة، وأتعابه الجسديّة عن أن يسأل: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ وأن يبذل جهده لمساعدة مسكين، والوقوف مع ضعيف، والسعي في حاجة محتاج.

قانون ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ يعلمنا فيه موسى ﷷ أن نتناسى همومنا وأوجاعنا لأجل الآخرين، ألّا ندع جرحًا يثعب دون أن نضمّده، وألّا تدعنا انشغالات الحياة نتجاهل عينًا تتدفق دموعها.

العطـــر

أوجِدْ في داخلك خانة غير قابلة للتعب والإرهاق، تكون مخصصة للاهتمام بالآخرين، للسؤال عن أحوالهم، لتأمّل التغيّرات التي لا ينتبه لها إلا المُرهَفُون جدًّا!

مهما أنهكتك الظروف، لا تكسل عن كلمة وإن كانت عابرة في ظنّك إلا أنّها مؤثرة في اعتقاد من حولك!

كن العطر الذي يستنشقه الجميع، ولا يرونه!

كان عبد الله بن المبارك يخرج من بيته ليلًا، لا يعلم به أحد، ويحمل الطعام إلى بيوت الفقراء، فيفتحون أبوابهم الفجر فيجدون الطعام عند أبوابهم ولا يعلمون من الذي وضعه! فلما مات ابن المبارك، انقطعت تلك الأطعمة والأرزاق، فعلموا أنّه العطر الذي كانوا يستنشقونه ولا يرونه!

ومما يُذكر عنه رحمه الله أنه كان «كثير الاختلاف إلى طرسوس، وكان ينزل الرقة في خان، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث، قال: فقدم عبد الله الرقة مرة فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجلاً فخرج في النفير، فلما

قفل من غزوته ورجع الرقة سأل عن الشاب، فقالوا: إنه محبوس لدين ركبه، فقال عبدالله: وكم مبلغ دينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دل على صاحب المال فدعا به ليلاً ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلَّفه أن لا يخبر أحداً مادام عبد الله حياً، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس، وأدلج عبد الله، فأخرج الفتى من الحبس وقيل له: عبدالله بن المبارك كان هاهنا وكان يذكرك وقد خرج، فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة، فقال: يا فتى أين كنت؟ لم أرك في الخان!، قال: نعم يا أبا عبدالرحمن، كنت محبوساً بدين، قال: كيف كان سبب خلاصك، قال: جاء رجل فقضى ديني ولم أعلم به حتى أُخرجت من الحبس، فقال له عبد الله: يا فتي، احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك، فلم يخبر ذلك الرجل أحداً حتى مات عبد الله»[(١)].

ليس شرطًا أن ترى التفاعلات الجميلة التي تصنعها كلماتك أو أعمالك في نفوس الآخرين، يكفي أنّك تحسّ

---

(١) من أعلام أهل السنة والجماعة عبدالله بن المبارك، (ص: ٣٤).

بها! بل يكفي أنّك تؤمن بظهورها، بل يكفي أن الله رآها!
﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾.

قطعة الحلوى

الناس يحبّون أولئك الذين يسألونهم باستمرار:

ما الذي حدث لك؟

أرى عليك أمارات التعب؟

يبدو أنّك لم تنم جيّدًا البارحة!

هل هناك ما يضايقك؟

ابتسامتك توحي بأنّك سعيد جدًّا اليوم!

كن مرهف الحسّ، صادق المشاعر مع أولئك الذين تعيش بينهم، إنّك بذلك تملؤهم إنسانيّة، وحبًّا، وذوقًا.

كان لي صاحب يريني من حفاوته وابتسامته ما جعلني أعتقد أنّي المقدّم لديه على جميع الأصحاب، وعشت هذا الشعور زمنًا، ثم وبينما كنا نتحدّث أنا وبعض الإخوة عن هذا الإنسان الرائع، اتضح لي أن الجميع يعتقدون ما أعتقد،

وأن صاحبنا آتاه الله قدرة على أن يكون جميلًا مع الجميع، وأن يلوّن علاقته مع كل من حوله بلون الحميميّة.

إذا رأيت سعادة ما ظهرت على ملامح صاحبك، فكن سعادة أخرى تُضاف إلى سعادته، كن قطعة الحلوى لروحه التي قررت شرب قهوتها اللذيذة بين يديك!

وإذا لمحت طيف حزن، فامسح ذلك الطيف بكلمة مواسية، أو عبارة مهدّئة! اتل آية مبشّرة توقظ في نفسه معاني الصبر والسلوى.

إذا كان مشغولًا فاصنع له جوًّا يساعده على إنجاز مهامّه على أكمل وجه.

وإن تزاحمت عليه التكاليف، فمدّ يدك له بمساعدة لا تكلّفك شيئًا، وقد تعني له أشياء كثيرة! صوّر له ورقة، أو قرّب القلم منه، أو قل له: أنا سأحوّل المبلغ لفلان، وركّز أنت على بقيّة الأمور!

لا أنسى صديقي العزيز عبد العزيز عندما علم أنّي أهمُّ بالنقل من سكني، ولكنه سمع أني متردد في ذلك النقل، فلمسَتْ روحه المرهفة أن سبب ذلك التردد عدم تهيؤ

الدفعة الأولى للإيجار، فما كان منه إلا أن ناداني منفردًا، ثم أقرضني ثلاثين ألفًا، كنت أحوج ما أكون إليها!

كان الصحابة مع رسول الله ﷺ مرهفين جدًا يتنبهون لملامحه ولنبراته، يقول أحدهم: تبسّم إليّ رسول الله ﷺ تبسّم المغضب!

ويقولون: ضحك حتى بدت نواجذه.

وكانوا يرون الغضب والفرح والاستبشار والحزن في ملامحه عليه الصلاة والسلام.

هذا الذكاء الاجتماعي مهم، حتى تقرأ نفوس من حولك، وتستطيع أن تُسدي إليهم ما يحتاجون إليه في الوقت المناسب!

شَعَرك جميل!

إننا في ساعات تزاحم التكاليف والأشغال نتمنّى أن نجد من يحمل عنّا ولو أبسط شيء، لعلّ ذلك الشيء البسيط يمدّنا بنصف ساعة أو بخمس دقائق إضافيّة نحن أحوج إليها لننجز المهمّة!

إذا رأيت صديقك وقد اشترى ثوبًا جديدًا، فأشعره باهتمامك بكلمة ثناء ستكون أغلى في نفسه من ذلك الثوب الجديد!

المهموم بأي شيء سواء بسعادته أو بحزنه، بأناقته أو بانشغاله، سيفرح كثيرًا إن أظهرت له أنّ همّه همّك، وإحساسه إحساسك!

يقول «دايل كارنيجي»: إنّه في طابور المصرف وصل إلى الموظّف المنهك، فلمح أنّ شعره مصفف بطريقة جميلة، فقال له: (**شعرك جميل، أتمنى أن لابني شعرا مثله!**) قال فرأيت ابتسامته مسحت الإرهاق تمامًا عن وجهه، قال: وأجزم أن أول شيء سيفعله إذا عاد إلى بيته هو أنه سيقف أمام المرآة، ليتأمّل شعره الذي اهتم به شخص ما!

صاحبي مرّ بمطعم في منطقة حقل الساحلية ليشتري فطورًا رمضانيّا، فرأى أحد الطباخين مُنهمِك في عمله بجد وإتقان، فلما ذهب ليدفع الثمن رفع صوته لدى المحاسب مشيرًا لذلك الطبّاخ مثنيًا عليه!

قال: وبعد عام عدت لنفس المطعم، وحانت منّي التفاتة إلى نفس الطبّاخ فوجدته يبتسم لي! سنة كاملة ولم ينس! لقد

انغرست كلماته الجميلة في أعماق روح ذلك الرجل!

إننا باهتمامنا بالآخرين نصنع في نفوسهم عالماً آخر، مليئًا بالجمال والحب!

التباكي

لا تنتظر أن يطلبك الآخرون أن تساعدهم، ابدأ بمساعدتهم قبل أن يطلبوك، ولن تستطيع فعل ذلك ما لم تكن صاحب نفس رهيفة تقرأ العيون بذكاء، وتلاحظ الملامح وتغيّراتها، وفي داخلها خانة مخصصة لهموم الآخرين!

يقول الشاعر:

والنفس تعرف في عينَيْ محدّثها
إن كان من حزبها أو من أعاديها

عيناك قد دلّتا عينيّ منك على
أشياء لولاهما ما كنت أدريها

والنفس التي تعرف في عيني محدثها ما يجب أن تعرفه نفس ذكيّة لّماحة، وإلا فهناك نفس لو انسملت عينا محدّثها لم تنتبه لذلك! أعيذك أن تكون مثلها.

يُروى أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه وهما يبكيان، فتوهّج في نفسه قانون ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ فقال: «يا رسول الله! ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما»[1].

عمر بن الخطاب رضي الله عنه على استعداد أن يبكي لأجل أحبابه، حتى لو لم يكن هناك ما يدعو للبكاء، سيمثّل البكاء ليواسيهم! يا لها من أخلاق نبيلة، بل غاية في النبل.

انفض عن روحك غبار الرتابة الشعورية، وعلّق في قلبك ناقوسًا يدق بـ ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ وستكون بذلك أحييت أهم صفة من صفات الإنسان الذي يحاول أن يجعل الحياة من حوله أجمل.



(١) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١/ ١٩٠).



﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾



لا تكن ترابيًّا لدرجة كثيفة، خفف من مسحوق الرمل في تصرّفاتك..



قانون ٣

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير ذلك الظل: إنّه «ظل شجرة، فجلس في ظلها من شدة الحر وهو جائع»[1].

لمّا سقى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للفتاتين، وأنجز المهمّة المكتظة بالمروءة، لم يطلبهما أجر السُّقيا، ولم يقف بعد أن سقى لهما للحظات حتى يسمع منهما كلمة (شكرًا)، بل في صمت النبلاء تولى إلى الظل.

هذا قانون موسوي فريد، يقول لنا فيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: لا تنتظر (شكرًا)، اعمل الخير وامضِ.

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ٥٢٩).

كن مجانيًا

إنّ الإنسان إذا تشبّع بالإسلام غدت المجانيّة صفة من صفاته، ولم يعد الربح يعني له الكثير ولا القليل، فقد تجاوز بإيمانه ضرورة النقد، فهو يعلم علم اليقين أنّ هناك نقودًا أخرى، لها قيمة أكبر، تأتيه من جهة أعظم، فلا يحرص على أن يأخذ -أو يطالب- بأجر كل عملٍ يعمله.

موسى عليه السلام كان أحوج ما يكون للطعام، للمسكن، للهدوء النفسي، ومع ذلك لم يحرص على أخذ أجر عن سقياه لابنتي شعيب عليه السلام،لأن الذي يطعمه ويسكنه ويهدّئ من روعه هو الله، وقد رآه سبحانه عندما سقى للفتاتين، هذا يكفي.

﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ بكل هدوء وسكينة، دلالة على أنّه انتهى دوره، سقى لهما ثم تولّى إلى الظل، ما أجمل السعي في خدمة الآخرين بدون مقابل! إنّها من أعظم الخصال.

ما أجمل أن توصل ماشيًا مُنهكًا بسيّارتك، فإذا نزل وأراد أن يدفع أجر توصيلك له، تخبره بأنّك لا تريد منه شيئًا، أنت ساعتها عظيم!

ما أجمل أن تعطي جارك سيّارتك، ليستخدمها بدل سيّارته المتعطلة دون مقابل، أو أن تساعد كبيرًا يعبر الشارع، أو أن تحمل طفلًا كاد أن يسقط! ثم تتولّى إلى الظل.

إن أصحاب المجّانيّة، يأخذون أكثر مما يُعطون، هذه حقيقة يعلمونها، ويرونها، ويلمسونها.

المجانيّ يأخذ الطمأنينة، ويأخذ الرضا عن الذات، ويأخذ الراحة النفسيّة، ويأخذ الأجر من الله، ويعوّضه الله بركة في رزقه، وصحّة في جسده، وصلاحًا في أولاده، كل هذا دون أن يطلب، لأنّه تعامل مع الشكور سبحانه، لا مع الناس.

الطريق إلى الشرف

لماذا لا يكون جزء من عملنا لله؟ وما كان لله يبقى، وما كان لغيره يفنى، لماذا لا نسقي للناس ثم نتولّى إلى الظل بهدوء؟

هذا موسى عليه السلام لم يكن يحلم بكل ما حصل عليه، لقد سقى للفتاتين دون مقابل، لم يكن يتاجر مع العالمين، كان يتاجر مع رب العالمين، فلم يمض كثير من الوقت حتى عادت إحداهما تمشي على استحياء تقول له: ﴿ إِنَّ أَبِي

يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾! جاءته المكافأة الدنيويّة فوق كل الأجور التي أتت من الله، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

زراعة الخير فن! ويحتاج إلى وقت ليثمر! من المؤكد أنّ هاتين الفتاتين ليستا أوّل من يسقي له موسى في حياته، ليستا أوّل من يُسدي موسى له معروفًا، لقد قدّم خدماته للكثير قبلهما! من ناكري الجميل، ومن المتجاهلين للمعروف، هناك من دعا له، وهناك من أهمله، بل وهناك من وقع موسى بسببه في ورطة ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾! [القصص: ١٥] ولكن موسى لا يأبه، لأنّه يريد الأجر من الله، لذلك كانت ثمرة هذا الخير المبذول أن وجد موسى عليه السلام عند شعيب، العمل الشريف، والمسكن الهادئ، والزوجة الرضيّة، وهل يريد الإنسان في حياته شيئًا فوق هذه المطالب؟ ثم بعد ذلك تأتيه الرسالة، نعم الرسالة شأنها عظيم، ولن يصطفي الله لرسالته إلا الرجال الأفذاذ، الرجال المتفانين، يستحيل أن يصطفي رب العزّة لشرف الرسالة رجلًا متخاذلًا، رجلًا جبانًا، رجلًا بخيلًا، لا بد أن يكون النبيّ على خلق عظيم، إذن تلك المجانيّة من أسباب

اصطفائه رسولًا، لأنّها دعامة من الدعامات الخلقيّة التي كان يتحلّى بها عليه السلام.

من المؤكد أن الله تعالى لن يصطفيك لتكون نبيًّا لحسن خلقك، أو مجانيّتك، لأنّه لا نبيّ بعد محمد ﷺ، ولكن ثق أنّ حُسن خلقك يؤهلك لنيل الشرف الديني والدنيوي، لأن عالم السر والنجوى ينظر للخلْق فيختار أصفاهم ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] فتهيّأ بالأعمال الصالحة لتكون صفيّ الله في شأن من الشؤون! الله أعلم بذلك الشأن.

نافق وكن دجالًا كيفما شئت! ولكن لن تنطلي حيلك على الله، لذلك دائمًا يقع المنافق في شر أعماله، بقدر ما يبتسم للدنيا، فإنّه يجد التقطيب منها، لأن مُقلّب القلوب يعلم كل شيء عنه، فلن تحب القلوب شخصًا يبغضه علام الغيوب!

الصبر والمداومة

أحدهم يحدّث بأنّه يتساهل في العادة مع البائعين في الريال والريالين، فيقبض أضعاف ما يتساهل فيه، فصاحب

المغسلة يغسل له بنصف القيمة! وصاحب البقالة يتساهل معه، ويدينه إن لم يكن معه مالًا، يقول: ويكفيني الابتسامة والرضا والحب الذي أراه في ملامح البائعين، إن كان سيكلفني ذلك الإحساس ريالين، فإنّي سأدفعهما دون تردد، وأنا الرابح.

إنّ الصبر والمداومة هما سر قبول الله العمل ومباركته، فلا تظن أنّك بأول بادرة مجانيّة ستجد المقابل، ستأتيك إحداهما تمشي على استحياء! المسألة ليست منطقيّة بالقدر الذي تظن، إنّها إلهيّة أكثر منها منطقيّة، بل لا تفكر بالمقابل، فالتفكير فيه أوّل دليل على عدم الصدق، كن شهمًا وحسب، كن رجلًا مثل موسى، قدّم المعروف ثم تولّى إلى الظل، قد تأتيك جائزة من الله في المرّة العاشرة أو العشرين يبلغ ثمنها كل ما قدّمت من مجانيّات، وزيادة، فالله خير وأبقى.

ولا ينبغي للمسلم أن يغفل عن آخرته، فليكن لك عمل تدّخره عند الله، نعم قد يكافئك الله مكافئة دنيويّة، ولكن ليكن التطلع إلى الآخرة هو الأهم، ما أجمل أن ترى شيئًا جميلًا عملته لله يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، وتذكّر أن الله خير وأبقى.

مسحوق الرمل

يحدّث الشيخ «أنس بن سعيد القحطاني» أنّ رجلًا أخبره (وهو شيخ ثقة) أنّ رؤيا عاودته أيامًا يرى فيها النبي ﷺ وهو يوصيه أن يبشّر فلان بن فلان بالجنّة! يقول وأنا لا أعرف ذلك الرجل، ولكنّه سأل عنه باسمه ووصفه فإذا بالناس يدلّونه على رجل من أهل مكّة، سائق سيّارة أجرة، كان شأنه لا يوحي بأنّ كرامة ما تنتظره! زار الرائي ذلك الرجل المبشَّر في بيته وأخبره أن معه بشرى عظيمة له، ولن يخبره بها إلا إن صارحه بعمل خير يعمله، وبعد أخذ وعطاء رضخ ذلك الرجل للشرط وأخبر بسرّه العجيب، ويتلخّص سرّه بأنّ جارًا له مات من مدّة، وخلّف زوجة وخمسة أطفال، يقول: ووالله منذ أن مات جاري لم أُدخل بيتي شيئًا إلا وأدخلت بيتهم مثله، والله لا يعلم بذلك أحد!

القصّة كما ترى عظيمة، ودافعة إلى عمل الخير، وفيها من المروءة ما فيها، إلا أني أدعوك إلى تأمّل آخر ما فيها: (والله لا يعلم بذلك أحد) كيف صبر على كتمان مثل هذا الأمر؟ إنّه قانون: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ إنّه قانون ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] الذي إن عملت به، انهالت

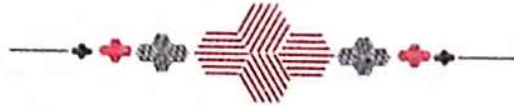
عليك الكرامات، والأعطيات.. وما أعظمها من كرامة إن كانت الجنّة!

اخلع فكرة المقايضة عن أعطياتك، أو عن شيء منها، لا تكن ترابيًّا لدرجة كثيفة، خفف من مسحوق الرمل في تصرّفاتك، واغرس في حياتك شجرة ظليلة، ثم تولّى إلى ظلّها في اليوم مرّة أو مرّتين.. عندها سيأتيك الرضا يمشي على استحياء.

المتّكَـــأ

أنا وأنت نعرف ممن حولنا من دأبه العطاء، ممن نسميهم (أصحاب الأيادي البيضاء) والشيء الذي يكاد يكون قاعدة لا استثناء لها، أنّ هذا الصنف من الناس إن احتاجوا أو ألّمت بهم ضائقة، أو وقع لأحدهم عارض صحّي، تجد أنّ الجميع يتسابقون إليهم مساعدة وبذلًا.. ليس من يعرف سابقتهم وماضيهم فحسب، بل الجميع، بل حتى الظروف تطاوعهم، والأحوال تلين لهم، وكأنّ الله أعطاهم من قضائه وقدره ما يناسب قلوبهم الرحيمة.

أعرف رجلًا لا يكثر الاختلاط بالناس، ومعارفه قليلون جدًا، ولكنّه لمّا مرض، انفتحت الأبواب لمساعدته، وتهيأت الظروف له، وتزاحم الناس لخدمته! تحسّنت صحّته بعد ذلك، ثم وبعد سنوات مات، فاكتشفت سرّ ذلك الحدب من الناس، وسرّ تلك الظروف التي حنت نفسها طيّعة لحالته، لقد كان رحيمًا بالعُمّال الذين يسكنون بالقرب من بيته، ويصلهم بالصدقات والهدايا، حتى إن بعضهم يوم مات كان يبكي أكثر من أهله، والبعض أعاد إلى أهله الصحون التي كان يضع فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطعام ويرسله إليهم! وصدق ابن عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «صاحب المعروف لا يقع، فإن وقع وجد متّكأ»[1].



(١) عيون الأخبار (٣/ ١٩٦).



﴿ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ ﴾





أشد أنـواع الاختنـاق عندما تمتلئ روحك بالإحباطات وخيبات الأمل ثـم لا تجد جـدارًا تتكـئ عليه، ولا صدرًا تبثّه همّك!





قانون ٤

﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضحًا هذه القصص التي سردها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنها: «من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن وصل إليه»[1].

بعد أن تولّى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الظل جاءته إحدى الفتاتين تمشي على استحياء، وتخبره أن أباها يدعوه ليجزيه أجر ما سقى لهما، يقول سبحانه: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ فانطلق معها ليلتقي بوالدها شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ويكون بينهما من

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦١٤).

الحديث ما يكون، فيقصّ موسى عليه السلام عليه ما جرى له في مصر من إرهاب وتهديد بالقتل، ويسرد التفاصيل الحزينة، والقصص المثيرة.

لقد وجد موسى عليه السلام في شعيب عليه السلام القلب الذي يتّسع لشيء من همومه، والكتف التي تقوى على أن يتكئ عليها، والإنسان الذي يمكنه أن يزيح بين يديه شيئًا من همومه وأتعابه.

يقول الله تعالى عن هذا المشهد الممتلئ بالإنسانيّة التي تسير وفق طبيعتها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ نعم، لقد قصّ موسى القصص، ولم يتحفّظ، أو يحاول أن يضفي الغموض على شخصيّته.

إنّ موسى عليه السلام يعلمنا قانون ﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ لنقصّ قصصنا، ونبث شكوانا، ونخبر أحبابنا بتفاصيلنا الحزينة:

ولا بدّ من شكوى إلى ذي مروءة
يواسيك أو يُسْلِيك أو يتوجّعُ

منجم الفحم

علّمني موسى عليه السلام أن أفضفض! أن أتحدّث بما يدور في نفسي من قلق وخوف، أن أبحث عن صدر يليق به أن يكون صندوقًا لهمومي ثم: أقصّ عليه القصص..

لا تحوّل صدرك إلى منجم فحم، ليس فيه إلا السواد، بل حاول أن تخرج تلك التفاصيل المحزنة، والتوقّعات المخيفة لمن تثق بهم، اسرد جميع القصص التي أثّرت في نفسك لأبيك، لأخيك، لصديقك، لزوجتك.

يعود رسول الله ﷺ من غار حراء، ترجف بوادره خوفًا، بعد اللقاء الأول بينه وبين جبريل عليه السلام، ويقول لزوجه خديجة: «دثّروني دثّروني».. ثم يقص القصص على خديجة، يخبرها بما رأى وسمع، فيأتيه: «كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1]، ثم تذهب به إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل ليطمئنه ويشرح له نبأ ما رأى.

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ٢٩).

لا تكبت مشاعرك، ولا تحبس أفكارك، ولا تدفن قصصك، تحدّث، اسرد، فصّل لمن تثق فيهم؛ لعلّك تسمع حلا لمشكلتك، أو تخفيفًا من معاناتك، أو دعاء صادقًا، أو مشاعرًا جميلة تنسيك معاناتك!

الطمأنينة

عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة لقي من بعض المنافقين شراسة وسوء أدب، فقد مرّ في يوم من الأيام وهو راكب حماره بالقرب من مجلس فيه عبد الله بن أُبيّ بن سلول، فقال له ببذاءة: قد آذانا نتن حمارك!

فتحزّ هذه الكلمة غير المؤدّبة في قلب نبي الله، فيذهب ليقص القصص على سعد بن عبادة فيخبره سعد بما يهدّئ من عتبه عليه الصلاة والسلام.

بل وقد تأتيك الكلمة المحزنة من بعض محبّيك، فلا تدفن أحاسيسك، بل اقصص القصص!!

بعدما انتصر النبي ﷺ وصحابته الكرام في غزوة بدر الكبرى نادى: «**إني قد عرفت أن رجالًا من بني هاشم**

وغيرهم قد أخرجوا كرها، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختريّ بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنّه إنما أخرج مستكرهًا».

فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العبّاس؟ والله لئن لقيته لألحمنّه السيف! فبلغت تلك المقالة النبي ﷺ فذهب إلى عمر بن الخطاب وقال له: **«يا أبا حفص، أيُضرب وجه عمّ رسول الله ﷺ بالسيف؟»**

هنا قصّ النبي ﷺ القصص، هنا عبّر عما في نفسه لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه، لم يدفن ذلك الشعور، وإنّما بحث عن قلب ينبض بالحب، ثم غرس تلك المشاعر فيه، لتنبت الطمأنينة.

جيوش الكآبة

تحدّث، قصّ القصص، أخبر الناس عن بعض ما يعتريك من توقعات، فلعلّها توقعات خاطئة، من الممكن أن يساعدك أحد من حولك على تجاوز محنة تظن أنها بلا حل، ولا يمكن تجاوزها!

أحد من أعرف كان يذهب إلى صديقه وقد أحاطت به جيوش الكآبة، فيمسك ذلك الصديق ورقة ويقول له: قصّ عليّ! هات ما لديك؛ فيبدأ ذلك المهموم بسرد همومه الصغيرة، وهو متأكد أنّها ليست سبب كآبته، ثم لمّا ينتهي من كتابة ثمان أو تسع أو حتى عشر نقاط، يبدأ الصديق بتفنيدها، واحدة واحدة.. وما إن ينتهي إلى الرقم عشرة، حتى يرى الابتسامة الصادقة تعلو وجه ذلك المهموم! فقد انتهى كل شيء..

بعض الهموم تحتاج أن تتحدث عنها حتى تتلاشى، لا تُحكم إغلاق صنبور الخصوصيات داخلك، بل أتح له أن يسرّب شيئا مما يقلقك، لعلّ الحل يكون أقرب إليك مما تتوقّع!

قانون ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ لا يجعلك ثرثارًا تحدّث الكل بكل ما تشعر به، ولكنّه يجعلك تختار القلوب الكبيرة، والعقول الحكيمة، لتفضي إليها بشيء من معاناتك، وتحكي لها عن بعض أسرارك التي تحوّلت مع الأيام إلى عقد، وخواطر مقلقة.

الأكسجين

وأعظم من يمكنك أن تبث إليه ما يعتلج في صدرك من حزن وقلق وخوف هو الله سبحانه وتعالى، سترتاح مباشرة بعد أن تنتهي من شكواك، حتى لو لم تُجب دعواتك بعد!

وها هي دعوات الأنبياء تصعد إلى السماء، مؤكدة على هذا المعنى العظيم:

ها هو يعقوب يئنّ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وها هو أيّوب بلغته المنكسرة يتضرّع: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٣].

وها هو زكريّا يلهج برجاء: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

يمتلئ قلب النبي ﷺ بالحزن بعد ألا تجدي دعوته في أهل الطائف فيخرج منها حزينًا فلا يفيق إلا وهو بقرن الثعالب! قرابة الثلاثين كيلًا وهو يمشي، تلف به أحزانه! ثم يحفظ

التاريخ دعاءه الشهير بوادي نخلة: «**اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس..**».

أشد أنواع الاختناق عندما تمتلئ روحك بالإحباطات وخيبات الأمل ثم لا تجد جدارًا تتكئ عليه، ولا صدرًا تبثه همّك!

وقـــد قـــيل:

لا بـــدّ للمصـــدور أن ينفثـــا
ومـــا حـــواه الصـــدرُ أن يُبعثـــا

لا تتح مجالًا لتاريخك الشخصي أن يتحوّل إلى قفص اتهام لحاضرك، بل حوّله إلى نكات، اجعل أصدقاءك يضحكون على بعض ما حدث لك في سابق أيامك، بذلك ستشعر أنّ كثيرًا من مكبوتات صدرك قد تحوّل إلى أكسجين، يزيدك حيويّة، وقد كان كربونًا مضرًا بحاضرك ومستقبلك.





﴿لَا تَخَفْ﴾







كن أجمل ذكريات من حولك، دعهم في الغد يتذكّرون كلماتك المشجّعة، وأنّك من لقنهم درس التفاؤل، وحفّظتهم آية: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾



قانون ٥

لَا تَخَفۡ

﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

يقول ابن كثير رحمه الله في معنى ﴿لَا تَخَفۡ﴾: أي «طبْ نفسًا وقرّ عينًا، فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلادنا»[١]، ويشرح تلك اللفتة الطاهر بن عاشور رحمه الله فيقول: «طمأنه شعيب بأن يزيل عن نفسه الخوف لأنه أصبح في مأمن من أن يناله حكم فرعون؛ لأن بلاد مدين تابعة لملك الكنعانيين وهم أهل بأس ونجدة. ومعنى نهيه عن الخوف نهيه عن ظن أن تناله يد فرعون»[٢].

لما قصّ موسى عليه السلام القصص، وسرد تفاصيل ما حدث له لشعيب عليه السلام وأخبره أنَّ دمَه بات مهدورًا، وأن السلطات

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٢٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٠٤).

الفرعونية تطلب رقبتَه، قال شعيب بلغةٍ حانية، مليئة بالرحمة: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾..

لم يقل شعيب في نفسه: لا دخل لي بهذه التفاصيل، الذي يعنيني من موسى هو أن يأجُرني ويساعدَني.

بل رأى لِزامًا عليه أن يربت على هذه الروح المنهكة، وأن يدخل السرور والسعادة على هذا الرجل الهارب من جحيم فرعون.

قانوننا المستلّ من قصّة موسى عليه السلام هو ﴿لَا تَخَفْ﴾..

لا تدع خائفًا إلا وهمست في أذنه بـ﴿لَا تَخَفْ﴾، اجعل كفكفة الدموع المنسكبة، من مهامّك في هذه الحياة.

ما لا خيرن

علّق في قلبك لوحة كبيرة واكتب عليها بخطّ ديوانيّ جميل: ﴿لَا تَخَفْ﴾! ثم لا تترك كئيبًا، ولا حزينًا، ولا خائفًا إلا وقرأت عليه تلك اللوحة، إلا وشرحتها، إلا وعملت معه ما تمليه عليك.

احتفظ في جيبك بمرهم للجروح، لجروح الأنفس الحزينة، ثم لا تدع يتيمًا ولا فقيرًا ولا مريضًا إلا ودهنت نفسه بذلك المرهم، قل له: لا تخف سيزول مرضك بإذن الله، سيرزقك الله، ستكبر وتتجاوز هذه المصاعب، ستبتسم لك الحياة.

الناس يحتاجون إليك، الحياة مَلَأَتهم ندوبًا، فكن أنت الضّماد الذي يجدون فيه بُرء تلك الندوب، كن المدرج التي تهبط على أرضه طائرة سفرهم الممض!

والدتي -حفظها الله- تجيد العمل بنظريّة ﴿لَا تَخَفْ﴾! ولكنّها حوّرتها بلهجتها الجنوبيّة الجميلة لتصبح: (ما لاّ خيرن) أي ليس ثمّة إلا الخير!

كنت وأنا بعدُ صغير العمر والخبرة أعيش معها، وأتعلم منها، وأشكو وأبث إليها كل ما أحسه أو أشعر به أو أتخيّله! استيقظت ذات ليلة من النوم وقد خدرت يدي فباتت وكأنّها قد شُلّت، حاولت تحريكها، فإذا بها جامدة، ولا عهد لي بمثل هذه الحالة، فأيقظت والدتي وأنا فَزِع، وشرحت لها

ما حدث، فقالت بهدوء: ما لاّ خيرن، إنما نامت! وعلى وقع كلماتها تدفق الدم إلى يدي وبدأت تتحرّك.

وكلما شكوت لها ألمًا غريبًا، تقول لي: ما لاّ خيرن، ثم تذكر لي أنّه قد عرض لها مثله، وأنّه ألمٌ حميد، فأشعر بالهدوء بسبب كلماتها المهدّئة.

وإجابتها الوحيدة عن كل ألم أو شكوى أو تخوّف تصوغها بلهجتها القرويّة الحبيبة: (ما لاّ خيرن)..

نكهة القرية

ما أكثر الذين يحاولون أنْ يوصلوا للآخرين رسالة مفادها: أنّ الحياة صعبة، وأنّ مخاوفها في ازدياد، وأن الاقتصاد ينهار، وأن الحروب قادمة، ونذر الشر تنشر غيومها في الآفاق.. هؤلاء موجودون بكثافة.

إنّهم يمثلون دور الأذكياء جدًا، يفهمون في السياسة، والاقتصاد، والخطط الاستراتيجية، والعلاقات الدولية، والتاريخ، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، وشيء من الميتافيزيقا!

ستجدهم في مجلسك، وفي عملك، وفي الشارع، ستلتقيهم وأنت خارج من المسجد، أو واقف لدى طابور المحاسبة في متجر ما، سترى سحناتهم في الاستراحة، ستغصّ بهم غرفة المعلمين إن كنت معلّمًا، و(الفَرْشة) إن كنت عسكريًا، سيظهرون لك في صالة المغادرة، وستسمع نبرتهم في محطة القطار! لقد أنتجت المدنيّة بأدخنة مصانعها، وزحام شوارعها، وأبواق سياراتها، وتوتّرها الذي لا ينتهي، أنتجت من هذه النوعيات عددًا لا متناهٍ، والمطلوب منك: هو ألا تكون ضمن هذه الأعداد الغفيرة، كن الأسلوب الجديد، كن الابتسامة المشرقة، كن نكهة القرية الجميلة في لوحة المدينة الصاخبة، البشريّة تحتاجك مطمْئِنًا لها، فقد ملّت نبرات المتشائمين.

البشريّة تحتاج إلى لوحة ﴿لَا تَخَفْ﴾ التي في داخلك، أرجوك أظهرها، وارفعها عاليًا.

دعهم ليتحدثوا عن ضيق أفقك، وعن محدوديّة اطلاعك، وعن تواضع قدراتك في قراءة المستقبل القريب والبعيد. سيعرفون ما تمتلكه من عمق في الفهم، وبُعْد في النظرة عندما تضيق بأمراضهم المستشفيات، وتغصّ

بهم عيادات الأمراض النفسيّة! لا أتمنّى لهم ذلك، ولكن البشريّة متجهة -بهذا الأسلوب- إلى الموت أو الجنون في أفضل حالاتها، لأنه لا يمكن أن ينام أحدهم على قضبان سكّة الحديد، ثم يزعم أنّه في الغد سيذهب إلى الحديقة ليتنزّه، إلا إن كان يقصد أنّه سيذهب إلى الحديقة على شكل ثلاثة أجزاء منفصلة!

وبشّر المؤمنين

هنا شعيب عليه السلام يقول لموسى عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ﴾..

وهناك يوسف عليه السلام يقول لأخيه بنيامين: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾..

وهنالك محمد ﷺ يقول لأبي بكر الصديق في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾..

إن التربيت على الأرواح، وهدهدة المشاعر وظيفة من وظائف الأنبياء عليهم السلام.

لقد كانوا يسيرون في الحياة، وينثرون ورود التفاؤل والأمل فيما حولهم.

وهذا القرآن يأمر فيه الله تعالى بأمر مطلق بلا قيود ولا

حدود ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بشّرهم بكل شيء جميل، بشّرهم بالمطر وإن لم تر الغيوم، وبالشفاء وإن لم تر بشائر العافية، وبالخصب المالي وإن قالت نظريات الشؤم الاقتصاديّة عكس ذلك.

بشّرهم بالسعادة وإن رسمت الدموع تحت أعينهم أخاديد عميقة..

وبالرضا وإن تكالبت من حولهم المصائب..

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بكل جميل، ثمّ بشّرهم برضوان الله إن رضوا، وبجنّة الله إن صبروا، وبالسعادة الأبديّة التي تنسيهم كل شقاء.

ابتسم

شاعر المهجر إيليا أبو ماضي يكتب معلّقة في التفاؤل، في نظريّة ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ يحسن حفظها وكثرة تردادها:

قال: السماء كئيبة وتجهّما

قلت: ابتسم يكفي التجهّم في السما

قال: الصبا ولّى! فقلت له: ابتسم
لن يرجع الأسفُ الصبا المتصرّما

قال التجارة في صراع هائل
مثل المسافر كاد يقتله الظما

أو غادة مسلولة محتاجة
لدم وتنفث كلما لهثت دما

قلت: ابتسم ما أنت جالب دائها
وشفائها فإذا ابتسمت فربما

قال: الليالي جرّعتني علقما
قلت: ابتسم ولئن جرعت العلقما

فلعل غيرك إن رآك مرنّما
طرح الكآبة جانبًا وترنما

إذا رأيت خائفًا من الغد فقل له:

إن ربّا كفاك ما كان بالأمس
سيكفيك في غد ما يكون

إذا رأيت خائفًا من الفقر فقل له:

لا تخـــش فقـــرًا أو فاقـــه
فـــالله يغـــــدق أرزاقــــه

إذا رأيت خائفًا من الموت فقل له:

أي يـومـــيّ مـن المـوت أفــرّ
يـــوم لا قــدّر، أم يـــوم قُــدرْ

يـــوم لا قـــدّر لا أرهبــــهُ
ومـــن المقــدور لا ينجـو الحَـذِرْ

أجمل الذكريات

هناك أشياء تنتقل بالعدوى الاجتماعيّة منها الابتسامة والبشاشة.. كن أنت مصدر هذه العدوى:

كن أجمل ذكريات من حولك، دعهم في الغد يتذكرون كلماتك المشجّعة، وأنّك من لقّنهم درس التفاؤل، وحفّظتهم آية ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾..

في الناس غرقى، كن الحبل الذي يمتدّ لهم..

وفيهم الجوعى، كن كسرة الخبز التي تملؤهم بالحياة..

وفيهم الحزانى، فكن اليد التي تمسح دمعاتِهم..

كن الشيء الجميل في ذاكرة من حولك، أهذا صعب؟

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومن أجمل القول الحسن كلمة: ﴿لَا تَخَفْ﴾، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾، ﴿لَا تَحْزَنْ﴾.. تقولها لنفس تبكي في غار الظلمات!





أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ







إن الوعد إذا أطلقته يتحوّل في نفوس الآخرين دون أن يشعروا إلى واجب من الواجبات التي ينبغي عليك أن تؤديها، بينما لو عملته دون أن تعد به فسيكون حسنة من حسناتك التي يشكرونك عليها



٦

﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص: ٢٨].

يقول ابن كثير في معنى الآية: «فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد، وخرجت من الشرط»[١].

ويقول الآلوسي: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾: تصريح بالمراد وتقرير لأمر الخيار»[٢].

أخبر شعيب عليه السلام موسى عليه السلام أنه يريد أن يُنكحه إحدى ابنتيه؛ على أن يعمل أجيرًا لديه ثماني سنوات، ولكنْ إن أتمّها موسى عشرًا فهذا فضل منه، ولا يلزمه ذلك، فكان تعليق موسى عليه السلام هو: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٢٣٠).
(٢) تفسير الآلوسي = روح المعاني (١٠/ ٢٧٧).

فجعل المسألة مترددة ما بين الخيارين: إما أن يكتفي بالواجب الذي عليه وهو الثماني سنوات، أو أن يضيف إلى ذلك الواجب مستحبًّا وهو السنتان الأخيرتان إن شاء ذلك، فلم يحوّل المستحب إلى واجب عليه، بأنْ التزمه ووعد به، بل تركه -كما هو- مستحبًا!

قانون ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ يقول لنا: اترك الخيارات مفتوحة، ولا تضيّق على نفسك مادام الأمر فيه سعة!

قانون ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ يقول لك: لا تَعِد بما لا تستطيع إنجازه، ولا تعد بما يُحتمَل أن يُتعبَك إنجازُه، قلّل من الوعود، وأكثر من الإنجازات!

سأحـــاول

ديننا الحنيف جعل الإخلاف بالوعد علامة من علامات النفاق، لذلك فعليك أن تقلل من إمكانية اتصافك بهذه الصفة ما استطعت، لأنّ الوعد يقتضي أن توجب على نفسك شيئا لم يكن واجبًا، فتقع ما بين ضرورة إنجازه، والخوف من إخلافه.

انشر معروفك بين الناس بلا وعود، وأسعد الآخرين

بعطاءاتك المجانيّة لا بوعودك الكثيرة.

إن الإحسان إذا أمّلت به الناس يتحوّل في نفوسهم دون أن يشعروا إلى واجب من الواجبات التي ينبغي عليك أن تؤدِّيَها، بينما لو عملته دون أن تؤمّلهم به فسيكون حسنة من حسناتك التي يشكرونك عليها.

لا تلزم نفسك بشيء لا تدري: قد تضعف قوّتك عن أدائه، أو تقصر إمكانيّاتك عن تحقيقه، أو تفتر همّتك عن إنجازه، دعه هكذا معلّقًا، وإن احتجت أن تعد فعلّق وعدك على مشيئة الله، قل: إن استطعت، قل: سأحاول، قل: سأبذل وسعي.

العيش تحت إلحاح الوعد متعب لك حتى وإن كان في قدرتك أن تنجزه، فكيف وأنت لا تدري عمّا سيعرض لك.

أبشــــر

ونستفيد من هذا الدرس الموسويّ: أنّ تكثير الخيارات مطلب جيّد عندما تمر بتجربة مفاوضة ما!

لا تجعل نفسك تحت ضغط الخيار الأوحد، اجعل هناك

متنفسًا، خيارًا آخر، سيكون نافذة لك وقت إنجازك للوعد، تهب عليك منها نسائم السعة والرحابة.

كلّما كثرت الخيارات، أمكنك أن تنجز الأفضل منها، وبمهارة أفضل.

كثيرًا ما أقع في فخ نشوة اللحظة، والرغبة في دق الصدر، والتلذذ بقول (أبشر)! ثم في ساعة الصفر أندم، وتتحوّل الرغبة إلى إحراج!

جميلة (أبشر) هذه، وهي مِلْح العلاقات الاجتماعية، ولكن لا تقلها إلا فيما هو مستطاع لك، وواضحة تفاصيله كالشمس. أمّا أن تقول أبشر ثم تتبعها بعد أيّام بأعتذر، فهذا أمر ينقض غزْل العلاقات نقضًا.

احذر من كلمة أبشر! لأنّك تقولها منتشيًا، ثم وبدون أن تشعر تجدك وقد علّقك الآخرون بشين أبشر من رجليك!

أبشر مليئة بالمروءة والرجولة، يحب الناس سماعها، وقولها، ولكنك إن أسرفت في إطلاقها ستقيّدك، ستملأ حياتك بالإحراجات! فلا تكثر من قول شيء يملؤك اليوم بالنخوة، ويصبغك في الغد بحمرة الخجل!

القهوة الباردة!

الخيارات المتعددة تجعلك ما بين أن تنجز هذا أو ذاك أو ذلك، بينما يجعلك الخيار الأوحد بين أن تنجزه أو ألا تنجزه! بين أن تفي بوعدك أو أن تخلفه، بين أن تكون بمستوى كلمتك أو أن تكون دونها!

أفسح لنفسك المجال لأن تعتذر وأنت مرفوع الرأس:

إن قلت: سأحاول، استطعت أن تقول: حاولت ولم أقدر!

إن قلت: سأبذل وُسْعي، استطعت أن تقول: بذلت وسعي فلم أوفّق!

بعض الناس يلجؤون إليك لا لأنّهم لم يستطيعوا، بل لأنّهم كسالى!

هؤلاء تخلّص منهم بأن تجعل نصف الإنجاز عليهم!

قل له: ذكّرني! صدقني لن يذكرك، سينسى!

عندما كنت أعمل بالمستشفى كان البعض يُحرجني ليس بأن أعمل له موعدًا ما، بل بضرورة عمله في هذه اللحظة التي أكون فيها جالسًا أحسو فنجان قهوة مثلًا! فأقوم

مسرعًا وأنهي أمره، ثم أكتشف أنّه لم يحضر ليأخذ ورقة الموعد الجديد! أو أنّه قد راجع مستشفى أخرى! أو أنّه نام وفاته الموعد! مع أن ورقة الموعد الجديد قد تكون كلّفتني وقتًا وجهدًا وإحراجًا! فلم يساعدني لتصل جمالتي إليه، ولم يتركني لأتمتّع بفنجان قهوتي!

إذن

إذن املأ حياتك بـ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ واترك نوافذ الظروف مُشرعة من حولك، ثم حاول بقدر شهامتك أن تتم ﴿عَشْرًا﴾ ولكن اجعل ذلك الإتمام من عندك أنت، لا من عند لزوميّة الوعد، وضغط الكلمة، وإحراج الموقف.

وهذا ما فعله موسى عليه السلام فقد أكمل العشر فقد سأل سعيد بن جبير ابن عباس عن أي الأجلين قضى موسى، فقال ابن عباس: «قضى أكثرهما، وأطيبهما»[1] ولكنّه أكملها وهي تحمل نكهة الاستحباب لا الوجوب!

يقول الزمخشري في قول موسى عليه السلام: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٨١).

﴿فَمِنۡ عِندِكَ﴾: «وأما التتمة فموكولة إلى رأيي: إن شئت أتيت بها، وإلا لم أُجبر عليها»[1].

استثمر قانون ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ ولا تُلجئ نفسك لورطة «أعتذر» فإنّها تجعل علاقاتك متعبة، وتجعل لقاءاتك بالآخرين غير مريحة.



(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٤٠٦).



﴿ أُمْكُثُوٓا ﴾







أرجوك فرّق بين الحياة،
وألعاب (البلايستيشن)!



قانون ٧

امْكُثُوٓاْ

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]

يقول الإمام القرطبي رحمه الله في معنى: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ إنّي آنست نارًا: «أي أقيموا بمكانكم»(١).

عندما أتمّ موسى عليه السلام الأجَلَ الذي اتفق مع شعيب عليه السلام أن يقضيَه أجيرًا عنده، انصرف مسافرًا بأهله، وبينما هم في الطريق إذ رأى نارًا، فظنّها لأناس يتدفؤون، أو يُنضجون طعامهم، فأراد أن يذهب إليهم ليقتبس من تلك النار شُعلة، أو أن يدلّوه على الطريق، فلم يخاطر في هذه المغامرة

(١) تفسير القرطبي (١١/ ١٧١).

بأهله، بل قال لهم: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ فهو لا يريد أن يعرّض أهله للخطر، فهو لا يدري من يكون أولئك الناس (الذين ظنّهم موجودين)؟ لهذا فقد اختار أن ينفرد عن أهله، حتى إذا ما لحقه أذى، كانوا بمعزل عن ذلك الأذى!

وقد عُبّر عن الزوجة بلفظة الأهل التي تدلّ على الكثرة، مع أنّها واحدة، ثم جاءت صيغة الفعل للجمع ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ تأكيدًا لمعنى التكثير[1]، وكأنّ الزوجة تعني لدى زوجها الكثير، وأنّ زوجة موسى عند موسى لم تكن في خانة المفرد، بل في خانة المجموعة!

كم هي مهمّة أسرة موسى عليه السلام لديه، وكم هو نفيس هذا القانون الذي يهمس في أذنك قائلًا: أسرتك أسرتك ..

أسرتك أسرتك

قانون ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ عبارة عن كلمة، ولكنّ حقيقته حياة متشعبة يكتنفها الاهتمام بهذه الوديعة الثمينة التي جعلك الله حارسها، وراعيها، والمهتم بشؤونها.

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٤٥).

أسرتك هي الدفء الذي يحتضنك في هذه الحياة، وذكرياتك معهم هي تقريبًا كل ما ستحتفظ به ذاكرتك في الغد، سوف تنسى قدرًا هائلًا من الأسماء، والأوجه، والمواقف، ولن يبقى في تلافيف مخّك، وخلايا عقلك إلا الأيام التي جمعتك بهم، والمواقف التي كانت بمعيّتهم.

والداك، إخوتك، زوجتك، أولادك.. كل هؤلاء أسرتك، وكل فرد منهم يشكّل جزءًا من لوحة السعادة في نفسك.

الكرسي المتحرّك

لا تخاطر بأهلك! أَحِطْهم برعايتك وانتباهك، ولا تغامرْ بهم في صحاري الحياة، اجعل بينهم وبين المخاطر حاجزًا من حذرك، وسورًا من اهتمامك.

أحزنُ كثيرًا عندما أرى سيارة مسرعة سرعة تهوّر، ثم لما تتجاوزني ألمح فيها مع القائد غير المبالي امرأة وأطفالًا! لماذا المغامرة بهؤلاء الأبرياء؟ إن كنت ولا بدّ مسرعًا فافعل ذلك بمفردك، لا تعرّض من ائتمنك أهلها عليها للموت بطيشك وعدم مسؤوليتك.

إنك لن تُسامِح نفسك إذا تعرّضَتْ سيارتك لانقلاب -لا سمح الله- وخرجتم منها أحياء، غير أنّ أحد أبنائك قد صار معاقًا طوال حياته جراء ذلك الحادث! صار لا يمشي! بسبب تهوّرك، بسبب أنّك تريد أن تصل قبل موعد الوصول المفترض بساعة واحدة! ما قيمة تلك الساعة عندما تنظر لابنك وهو يُدفع بكرسيٍّ متحرّك! بل كيف لو فقدته؟ كيف لو فقدت أكثر من ابن؟ لماذا جعلت أسرتك شيئًا هيّنًا بالنسبة لك؟

أرجوك فرّق بين الحياة، وألعاب (البلايستيشن)! أسرتك لا تُعوَّض، صدقني إذا ما فقدتها فإنّها لن تعود لك بضغطة زر كما تفعل ذلك في لعبة (درايفر) على سبيل المثال! إذن امسح من عقلك أحلام الرجل الخارق، ذي السرعة القصوى، واحمد الله على أسرتك الرائعة، وكن لهم أبًا رحيمًا، لا مغامرًا طائشًا.

القفــل

الحياة مليئة بالمخاطر، ومن أهم مهامّك فيها أن تَحوْلَ بين أسرتك وهذه المخاطر!

موسى ﷺ قال: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ ولم يقل أقيموا، لأن الإقامة تقتضي الدوام، والمكث ليس كذلك»[1]؛ فهو يعلم أنّ الصحراء مليئة بالحيّات والعقارب والهوام، بل والصعاليك الذين امتهنوا السطو، لذلك لم يكن ينوي أن يطول بقاؤه هناك.

وأنت كذلك، لا تُطل غفلتك عن أسرتك وأهلك.

تأكّد من تمديدات الكهرباء ومن الأجهزة والتوصيلات في بيتك، لا تتغاضَ عن أقل تلف أو اهتراء قد يُحدِث في غيبتك انفجارًا أو ماسًّا كهربائيًا!

إن الخيالات المتعلقة بهذه الكوارث بشعة جدًا، ومحزنة جدًا، فكيف بالكارثة نفسها! صدِّقني لن تسامح نفسك لو اختفت ابتسامة طفلك في يوم ما، بسبب إهمالك.

لا تترك الخزّان بلا غطاء، أو بغطاء غير محكم الإقفال، فتتمنى بعد أن تحدث الكارثة -لا سمح الله- أنّك دفعت كل ما تملك لشراء قفل قيمته عشرة ريالات!

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ١٧٢).

ارفع السكاكين والأدوات الحادّة في أماكن لا تصل إليها أيادي صغارك..

لا مانع من إعطائهم دروسًا في كيفية حمل الأشياء الخطرة، كأواني الطعام، ودلّة القهوة!

علّم صغارك طريقة موازنة الماء الحار والبارد عند الاستحمام حتى لا تحترق أجسادهم بجهل منهم!

لا تسمح لأبنائك الصغار أن يذهبوا وحدهم إلى الأماكن التي تكتنفها المخاطر!

ومما أذكره أني طلبت من طلابي أن يحدِّثوني عن قصص حدثت لهم، ولا يمكنهم أن ينسوها، فإذا بـ«محمد» يحكي لي أنّ والده وعمّه استأجرا (استراحةً) على البحر، وأنّه في الليل خرج هو وابن عمّه ليلعبا، وخطرت لهما لعبة (أطول نَفَس)، فانغمس الطفلان في الماء، وقررا أن الفائز هو الذي يمكث مدّة أطول تحت الماء بلا تنفُّس، قال محمد: بعد أقل من دقيقة خرجت من الماء وأنا ألهث، بينما ظل ابن عمّي تحت الماء، انتظرت مدّة، ثم قلت له :اخرج فأنت الفائز،

ولكنّه لم يخرج! انتظرت مدّة أطول، ثم أنزلت رأسي في الماء، فإذا بابن عمّي قد غرق ومات! لا زلتُ أذكر بريق الدمع في عينيه وهو يروي قصّته المؤلمة!

تذكّر: هؤلاء أمانة عندك، فاحْجِز بينهم وبين الخطر بسياسة: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾.

حدّق جيّدًا

وخارج البيت ستكون الحياة أكثر خطورة! لذلك كن متيقّظًا، ودائمًا ادعمهم بالمعلومات اللازمة، وكن احتياطيّاً، ولا بأس بشيء من الوسوسة في هذا الجانب، لأن المخاطر كثيرة، وأبناؤك أغرار لا يعرفون في الغالب مصلحتهم!

هناك مراهقون يستخدمون السيارات كألعاب، فتزهق على أيدي بعضهم أرواح بريئة، احذر وحذّر أبناءك منهم.

وهناك ذئاب، وشياطين إنسيّة يحومون حول الصغار لأغراض خبيثة، فإيّاك أن تغمض عينيك، بل حدّق جيدًا، فهم أغلى ما لديك، وليس لديهم أب غيرك حتى يرعاهم ويحوطهم باهتمامه.

حصّنهم بالأدعية والأذكار، وبالتثقيف والتنبيه، وبالملاحظة والانتباه، وبالصرامة والحزم!

هناك في الشارع سيارات مسرعة، وحفر مكشوفة، ومحلات تجاريّة مشبوهة، ورفقاء سوء، وعادات سيئة، وكلمات بذيئة، يجب أن تحاول قدر الإمكان أن تجعل بين أبنائك وبين هذه الأمور مساحة من الحرص والتوجيه والاهتمام! هم أبناؤك، وأنت لا تريدهم في الغد صرعى مخدرات، أو معاقين على كراسٍ متحرّكة، أو مفسدين في الأرض!

وكل ما أقوله عن الابن أقول مثله وزيادة عن البنت..

في مدراس البنات مثل ما في مدارس الأبناء، فكن يَقِظًا، واجعل زوجتك مُعينة لك في الاهتمام بهذه النواحي، لاحظ ملامح ابنتك، كن صديقها الحميم الذي تُفضي إليه بأسرارها، لا بأس أن تحاول معرفة شيء من خفاياها بطريقة الأب الناصح الحنون، لا المُخبِر السري الذي يريد المداهمة!

أهل بيتك كلّهم من زوجتك إلى أصغر ابن أو بنت، بل وأبواك وإخوتك، تحت مسؤوليّتك..

حُل بينهم وبين المخاطر التي تودي بحياتهم، أو بأخلاقهم، أو بنفسياتهم!

قال لي ابن خالتي عن صديق له سوريّ الجنسية -على ما أعتقد- إنّه أخبره أنّه يسمح لابنه بكل شيء يريده، وأن مساحة الحريّة لديهم كبيرة جدًّا إلا في ثلاثة أمور:

الدين، والصحّة، والدراسة..

دينه ليس ملكه، ولا صحّته، ولا دراسته، هذه الأمور خطوط حمراء، لا يسمح له بالعبث بها.

جيّدة المرونة إذا كانت مرونة منضبطة! ولكنها بلا زمام ولا خطام لن تكون مرونة، بل ستكون إهمالًا، وقد تندم عليها في الغد!





﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾







كان يعتبر تفاصيلَ حياتِه مجوهراتٍ لا يُريد من الآخرين أن يمسّوها! بصدق لم تضفِ تلك الصفة عليه عنصر الفخامة، بل أشعرتني أنّه مريض بمرض غريب!



قانون ٨

﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

يقـول الإمـام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قـول الله سبحانه: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾: «أي أبصرتها من بُعد»[١].

لما رأى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رحلته الأولى مع زوجه نارًا، فقرر أن يتوجّه إلى ذلك الضوء، بقصد أن يقتبس منه جذوة، أو أن يجد على النار هدى، فلم يختر أن يكون غامضًا، بل كان واضحًا فقال: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ هكذا قال، لم يكتم ما رآه، بل عبّر عنه لأهله، ثم ذهب باتجاه تلك النار.

لم يعتبر ما رآه سرًا، وقرّر كتمه ريثما يتأكد منه، بل أفصحَ عنه.

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٥٦).

قانون ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾ يقول لك: أفصح عن بعض أسرارك، وتكلّم لأحبابك عن أحلامك وتطلّعاتك، ولا تكن صندوقًا مليئًا بالأسرار غير المهمّة!

أزمة الملعقة الواحدة

بعضنا يكتم الحقائق العاديّة عن أقرب الناس! وهذا الدرس الموسوي يقول له: أخبر أحبابك عما تراه وتشعر به وتحسّه وتعانيه.. لا تحوّل نفسك إلى كائن بلا ملامح! فكثرة الخصوصيات والغوامض تُلغي ملامحك الجميلة، وصفة الشخص المحبوب والمرح والصريح.

لا تجعل الحيرة تلف الآخرين حيال ما تعلمه أو تظنه أو تتخيّله!

من الناس من يهمه أمرك، دائما ما يختصّك بدعوات بظهر الغيب، يتمنى لك الخير، ويهين ماله لأجلك، ومنهم من لا يبالي في أي واد سالت همومك، وآخر لا يعرف من أنت أصلًا، ورابع قد يتلذذ بمعرفة شيء من إخفاقاتك! فلا تغرف لهم جميعًا بملعقة واحدة.

بُح لأحبابك وأقاربك ومن حولك بشيء من تفاصيلك التي تُريح ضمائرهم، وتَجبُر خواطرهم، وتُعْلمهم بشيء من أحلامك وهمومك وخططك؛ حتى يخوضوا معك مغامرة تلك الأحلام والخطط والهموم.

عاصفة الشكوك

كنت في بداية زواجي طالبًا في الجامعة، وعاملت الجميع معاملة واحدة، كلهم لا يعرفون عن شأن دراستي شيئًا، هل نجحت أم رسبت، هل حذفت الفصل أم أضفته، هل انتظمت أم انتسبت.. هذه البداية غير الجيّدة جعلتني مقيدًا في المجالس لا أستطيع أن أجيب عن الأسئلة العابرة التي تُسأل عن واقعي، لأن المجلس يجمع أكثر من شخص، وكل واحد منهم لديه تورية قد صُغتها له في مجلس آخر، فإذا ما أجبت عن السؤال الآني، خلقت عاصفة شكوك في عقول الحاضرين، فصرت أفضّل الانطواء، والبعد حتى لا يعتبرني الناس كاذبًا.. ولو كنت أعلم مغبّة تلك التعمية والتورية لما اخترت غير الوضوح.

لــون الرمـاد

لا تكتم آلامك وأمراضك عن أقرب الناس إليك، تجعلهم يعانون من تضجّرك وتبدّل مزاجك وحالاتك النفسية، ثم لا تخبرهم بما وراء تلك التغيُّرات من آلام تعيشها؛ إذ إنّ تعبيرك عن تلك الآلام سيجعل زوجتك التي قررت أن تنفصل عنك تعدِل عن رأيها، ورئيسك الذي جهّز لك إنذارًا بالفصل يمزّقه، وأخاك الذي بدأ يتذمّر من الجلوس معك يقرر أن يذهب بك إلى المستشفى أو أن يُقْرِضَك مبلغًا تقضي به دينك أو أن يقف معك في محنتك.

أحدهم ظهرت عليه تغيرات في تصرُّفاته، فصار بعض من حوله يحملون في صدورهم العتب عليه، وبعد أيام اكتشفنا أنّ ابنه أصيب منذ أسابيع بمرض غريب! وعلمنا أن ظرفه النفسي الصعب خلق تلك التغيّرات في تعامله معنا، عندها سامحناه، بل ووقفنا معه بما نستطيع، لو لم نعلم عن هذا الأمر كنا سنعتبره سيئًا! فلمّا زال ذلك الغموض عنه اعتبرناه عظيمًا؛ إذ كيف أنّه مازال متماسكًا وفلذة كبده معرّض لأن يغادر الحياة في أيّة لحظة!

حتى لو لم يكن في الأمـر ألم، الإفـصـاح بـشيء من خصوصياتك للآخرين يشعرهم أنّك تحبهم، وتكنّ لهم شعورًا حميميًا خاصًا، ويشعرك بخفّة الوضوح، وسلاسة الصراحة.

من المزعج أن تعيش في بُحيرة من الغُموض، فلا يعلمون بشيء من تفاصيلك! حتى تلك التفاصيل العاديّة، تُصرُّ على تغليفها بورق الخصوصية والغموض! ألا تخشى أن تتحوّل هذه النزعة إلى مرض ما، يسحب جميع ألوان الفرح من نفسك ويحيلها إلى اللون الرمادي الباهت؟

العَظَمة العاديّة

أحد الأصدقاء القدامى كان مزعِجًا لي بنسبة كبيرة، كنت أخشى أن أسأله عن ثوبه أين فصّله، وعن نظارته من أين اشتراها، وعن موعد نومه! كان يعتبر تفاصيلَ حياتِه مجوهراتٍ لا يُريد من الآخرين أن يمسّوها! بصدق لم تضفِ تلك الصفة عليه عنصر الفخامة، بل أشعرتني أنّه مريض بمرض غريب، يشبه غرابة طباعه!

أحبابك يرغبون في أن يعلموا عن حياتك، ليس لأنّهم يريدون أن يغيّروا مسار حياتك، أو أن يقوموا بحسدك على طموحك، وإنما تكوينهم وبيئتهم وطبيعة الحياة جعلت ذلك الشعور شبه مُلِحّ عندهم، لماذا تعاند هذا الشعور حتى في شؤونك العاديّة جدًا؟ حتى أين ستسافر في الصيف القادم تريد أن تجعله سرًا من أسرارك الكونيّة!

استمتع بالعاديّة، فالحياة تجعل الأشياء الغريبة بالغة الشذوذ، بل في كثير من المرات حاول أن تُفصح دون أن يُطلب منك عن بعض أسرارك التي تنطوي على شيء من الخصوصية، صدِّقني أنّ عناقًا روحانيًّا ستشعر به! فقد أشعرتهم بأنّك تثق بهم، وأنهم أهل لأن تقول لهم شيئًا ذا بال عن حياتك الخاصة.

عادة ما يشعرني الشخص الغامض باختناق، ولا يعني هذا ألّا تحتفظ بأسرارك، وأن تلغي قائمة الشؤون الخاصّة من حياتك؛ ولكن لا تكن مهووسًا بالخصوصيات، أكرر: حتى تلك التي لا حاجة للآخرين في أن يعلموها، إذا أتت في سياق مقبول ضمن قصّة ترويها، ستوطّد علاقتك

بهم، سيشعرون بحميميّة ما، وبأنّك شخص أكثر جاذبية، فالعظماء قليلو الأسرار، كن عظيمًا ضمن مجتمعك الصغير، وحياتك المحدودة، فالعظمة معنى يتّسع حتى لحياة النمل، والهداهد، أفلا يمكنك أن تكون ضمن المخلوقات التي تتحلى بنسبة عظمة، عظمة العاديّة؟





﴿هِيَ عَصَايَ﴾





استخدام العصا ليس عيبًا، العيب هو أن تكون العصا قريبة منك ثم تتركها لتظل تضطرب خطواتك في دروب الحياة!





قانون ٩

هِيَ عَصَايَ

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٧، ١٨].

يقول الإمام البغوي رحمه الله مفصّلًا لبعض المآرب الأخرى التي لم يذكرها موسى عليه السلام: «أراد بالمآرب ما يستعمل فيه العصا في السفر، فكان يحمل بها الزاد، ويشد بها الحبل فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ويحارب بها السباع، ويستظل بها إذا قعد وغير ذلك»[(١)].

سأل الله تعالى موسى عليه السلام عمّا كان يمسكه بيمينه ساعة كلّمه في طور سيناء -وهو العليم بذلك- فقال موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾.

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ٢٥٩).

نفهم من قول موسى ﵇: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ أنّه كان يستعين بعصا في أمور يومه الاعتياديّة، كأنْ يتوكأ عليها، ويهُشّ بها على غنمه من ورق الشجر، ثم هناك مآرب أخرى لم يذكرها موسى.. وهي فيما يبدو قريبة من الاحتياجات المذكورة.

إنّ ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ قانون يخرج من محدوديّة العصا، إلى فكرة: الاستعانة بأي شيء أو شخص أو مهارة أو فكرة تتذلل بها مصاعب الحياة، وتغدو أمورنا اليومية والحياتية أسهل!

التوكُّؤ ضرورة

كانت العصا معجزة من معجزات موسى ﵇، إذ حوّلها الله تعالى إلى حيّة!

فحاولْ أن تمتلك عصا تحوّل طموحاتك وأهدافك إلى حياة!

حُفَرُ الظروف الصعبة ستضطرّك للسقوط فيها، ومرتفعاتها ستجبرك على رُقيّها، ودهاليزها ستخنقك، ومفاجآتها سترهقك! فإن لم يكن معك عصًا تتوكأ عليها، فقد تُضطر لكتابة استقالتك من مباهجِ الحياة وأَلَقِها، لتقضي بقيّة عمرك في صومعة الوحدة!

لا تغامر بخوض تجرِبة السير في ممرات العمر دون عصًا تؤنسك قبضتها وتعطيك مزيدًا من الثقة، ويهابك من يراك متخصّرًا بها[1]، وتتحسس بطرفها تعرّجات دربك قبل الوصول إليها.

قد تكون..

هذه العصا قد تكون أباك الذي يسندك، أو أخاك الذي يساعدك، أو قريبك الذي يهتمّ لك، أو صديقك الذي يقاسمك روحه..

قد تكون هذه العصا شهادة علميّة تسهر الليالي لتنالها؛ لن تصل إلى الوظيفة التي تتمنّاها، أو الهدف الذي تخطط له بدونها!

وقد تكون مهارة لا بدّ من تعلّمها وإتقانها لتحصل على ترقية في عملك، كإتقان اللغة الإنجليزية، أو تعلّم مهارات الحاسب، أو التدرّب على كتابة الخطابات الرسميّة، أو غير ذلك مما يجعلك مؤهلًا لترقية في مجال تخصص، أو منصبٍ يليق بطموحاتك.

---

(١) المخصرة العصا، وتخصّرها الاعتماد عليها.

وقد تكون هذه العصا سيارة جيّدة ستحتاج حتى تمتلكها أن توفّر من مرتّبك شهرًا بعد شهر، ولكنّك إن حزت عليها تسهّلت أمورك بإذن الله، كونها ضرورة لتيسير حياتك من عمل وسفر وتنقلات ضروريّة.

وقد تكون بيتًا مناسبًا، أو دخلًا إضافيًا، أو خادمة، أو سائقًا..

لقد أوجدنا الله ضعفاء؛ ثم أتاح لنا أن نكون أقوياء بما جعل في كونه من الميسّرات التي تعين على القوّة والإتقان والسعادة!

ليست عصا واحدة!

لقد علّمنا سبحانه درس العصا في أول أيام حياتنا، فصدر الأم عصا لديمومة الحياة، واهتمام الأم وانشغالها بك عصا للحذر من مفاجآت الحياة غير المتوقعة، وحب الأم عصا لدفء الحياة.

وهناك مجموعة من العصيّ التي أمسكت بها في حياتك الأولى فكانت سببًا لأشياء ضروريّة أو جميلة في حياتك:

اللقمة التي جعلها أبوك في فمك..

الابتسامة التي افترّ عنها ثغر أخيك..

كلمة (حيّوه) التي هتف بها أستاذك مبتهجًا لتميّزك..

القلم الذي أقرضك إياه صاحبك، الريال الذي وضعه خالك في جيبك، الساعة التي كانت هديّة من إمام مسجدك لتميّزك في الحلقة.. كل هذه وغيرها عصيّ اتكأت عليها لتصل إلى ما أنت عليه الآن من مكانة ومكان وسعادة ورضا واتساق نفسي وصحة جسدية.

لا تتكبّر عن استخدام عصا تحتاجها، ولا تتكبّر على عصا استخدمتها، بل صارح الناس بكل ثقة وبكل نبل: هذه عصاي التي توكأت عليها في ما مضى وهششت بها على احتياجاتي المرهقة وكان لي فيها مآرب أخرى متنوّعة.

استخدام العصا ليس عيبًا، العيب هو أن تكون العصا قريبة منك ثم تتركها لتظل تضطرب خطواتك في دروب الحياة!

إذا تهت في الطريق فتوقّف واسأل..

وإذا كنت لا تعرف كيف تكتب معروضًا فاطلب من صديقك أن يساعدك في كتابته..

وإذا كنت في المستشفى وأنت لا تتقن الإنجليزيّة فقل للطبيب أرجوك أحضر لي مترجمًا..

هؤلاء الذين حولك ستكون عصاهم إن احتاجوا فليكونوا عصيّك إن احتجت، هكذا أراد الله من الحياة أن تكون ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ فهذا التسخير هو معنى العصا.

الخباز مسخّر للنجار أن يطعمه، والنجار مسخّر للبناء أن يصنع له أبوابه، والبنّاء مسخّر للزجّاج أو يبني بيته، والزجّاج مسخّر للخباز أن يركّب له زجاج نوافذه.. وهكذا هي الحياة.

فقط تأمّل!

لو تأمّلت الحياة جيّدًا، لأدركت أنها عبارة عن كميّات هائلة من العِصيّ! ولعلّ استخدامها هو من قبيل الفطرة التي لا تحتاج إلى فطنة وذكاء! ولكن الذكاء والفطنة يكمن في أن تضيف إلى العصيّ الموجودة نوعيّات خاصّة تفيدك إفادات تحتاجها في مرحلة معيّنة أو ظرف ما.

في هجرة النبي ﷺ يظهر قانون ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ جليّاً: فأبو بكر الصديق الصاحب والأنيس، وعبد الله بن أبي بكر

ناقل الأخبار، وأسماء بنت أبي بكر تأتي بالزاد، وعامر بن فهيرة يطمس آثار عبد الله وأسماء بآثار أغنامه التي يروح بها، وعبد الله بن أريقط الهادي والدليل الذي يدلّهم على الطريق.. وباستخدام هذا الكمّ من العصيّ بهذه المهارة وحسن الإدارة وبعد توفيق الله أولًا وأخيرًا نجحت الهجرة النبوية.

في مسيرة كل ناجح تفعيل جيّد لهذا القانون، والذي لا وجود لعصى يتوكّأ عليها في حياته، لا وجود للإنجازات والنجاحات في واقعه.

الأماني المنجزة

- املأ حياتك بالعصيّ التي تعينك:
- قم بواجباتك الدينيّة على أكمل وجه ..
- طوّر علاقتك بالله سبحانه، واجعل يومك خيرًا من أمسِك..
- أنجز عملك..
- ثقّف نفسك..

- وفّر من مرتّبك..
- أتقن اللغة الإنجليزيّة..
- نمّ علاقتك الاجتماعيّة..
- أحسن إلى الناس..
- ربّ أبناءك تربية جيّدة..

سوف تكتشف مع الأيام أنّ أمورك ميسّرة، وسوف يصفك من حولك بأنّك إنسان محظوظ، وأنت في الحقيقة مثلهم، تهيّأتْ لك نفس الفرص التي تهيّأت لهم، ثم كانت معك العصيّ المناسبة لاستغلال تلك الفرص، وهم تكبّروا عن تلك العِصيّ، فلم يمتلكوها!

إن فهمت قانون العصا، واستخدمته بذكاء، وملأت حياتك بالعصيّ الفعّالة، فلا تظهر لك حاجة ما إلا ووجدت حولك العصا المناسبة لها، عند ذلك ستكون من أولي العزم من البشر، من أصحاب الأحلام المتحققة، والأماني المنجزة، والخيالات الواقعيّة!

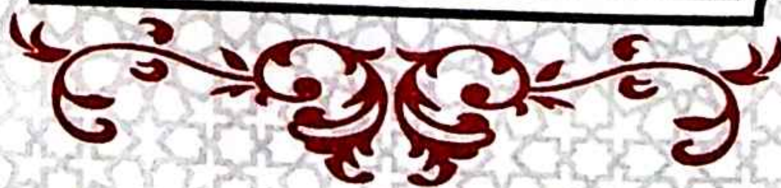




﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾



اختصر، فالحياة أقصر من أن تذكر فيها جميع التفاصيل



قانون ١٠

﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

لم يسرد موسى عليه السلام جميع احتياجات العصا بالنسبة له! وعدم سرد موسى للتفاصيل قد يكون له أسباب لا تمتّ لما سننحو بالكلام إليه من معانٍ، ولكنّ اتساع الجملة يعطينا ظلالًا أخرى تجعلنا نتعلم منها دروسًا أخرى.. علاقتها بالجملة إذا فصلناها، لا بالقصّة إذا وصلناها!

كذلك أنت لا تأت بجميع المآرب في كلامك، لا تذكر جميع التفاصيل، لا تضيّق على نفسك ببعض الإسهاب، وكم في الإجمال من تطويل! وكما قيل: إذا ضاقت العبارة، اتّسع المعنى.

سجن الاستقصاء

كم من وعد لم تستطع أن تفي به!

وكم من تفصيل في الكلام جعلك في ورطة؟

وكم من إسهاب دعت إليه فُسحة الكلام، ثم بات يستوجب عليه قائله الملام!

لا تستقصِ على نفسك ولا على غيرك، وقد قيل في سبب مقتل ابن المقفّع أنّه استقصى وتشدّد في كتاب أمان عبدالله بن علي عمّ الخليفة المنصور، قال فيه: «ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته»![1] فكان هذا التشديد والاستقصاء سببًا في غضب المنصور على ابن المقفّع، فأمر بقتله فيما بعد، والله أعلم.

فدع دائمًا في كلامك فراغات معنويّة تملؤها الظروف بما تشاء!

---

(١) انظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (٨/ ١٧٧).

أطيق أفضل من ذلك

والكلام يجرّ بعضه بعضًا، فاقرأ قصّة عبد الله بن عمرو وكيف أنّه شدّد على نفسه ﵁ في أمر صيام التطوّع، ثم ندم في نهاية حياته، لمّا كبر وشقّ عليه الصيام، ولكنّه لم يجرؤ أن ينقض عهدًا أبرمه بين يدي النبي ﷺ:

فقد روى مسلم عن سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، أن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: أخبر رسول الله ﷺ أنه يقول: لأقومنّ الليل ولأصومنّ النهار، ما عشت، فقال رسول الله ﷺ: **«آنت الذي تقول ذلك؟»** فقلت له: قد قلته، يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **«فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر»** قال قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: **«صم يوما وأفطر يومين»** قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، يا رسول الله، قال: **«صم يومًا وأفطر يومًا، وذلك صيام داود** ﵇، **وهو أعدل الصيام»** قال قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال رسول الله ﷺ: **«لا أفضل من ذلك»** قال

عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ، أحب إلي من أهلي ومالي»[1].

فضفضة المساء

دائمًا قل: بإذن الله، يكتب الله خيرًا، سأحاول.. وأشباه هذه الكلمات تجعلك دائمًا في مندوحة عن الاعتذار، والإحراج، و(طيحة الوجه) كما يقال.

ثم إنّي أحذّرك من عادة سيئة، وهي أنّ المرء إذا ما طال به الأنس بأصحابه، وامتدّ رواق الكلام، وبدأت الأسرار تطلّ برأسها من بين الأحاديث، إذ به يقول ما يتمنّى في الغد أن لو أقصر عن بعضه، فإياك إياك من فضفضة المساء! ففيها يقال عادة ما يُندم عليه في الصباح: وفي مثلها قال الأول: كلام الليل يمحوه النهار!

لا تندفع مع جمال اللحظات، لتقول ما قد تندم عليه من الوعود والكلمات، كن عاقلًا، واجعل أسرارك، وتفاصيل

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٨١٢).

آرائك، وكيفياتك الخاصّة في صناديق من ذاتك لا تصل إليها ليالي الأنس، ولا يطّلع عليها مردة الجن ولا صحاب الإنس!

في المنتصف

كن من أولي العزم من الرجال، ليكن كلامك دائمًا في المنتصف، لا تتفوّه بما تجبرك الحياة أن تدفع عليه ضريبة في قابل أيامك، فقد تقول كلمة تكون فاتورتها من مروءتك، أو بهاء شخصيّتك في أعين الآخرين.

ورقة المحاسب في المتجر بيضاء لا يلزمك بياضها بشيء، ولكن بعد أن يُمر المحاسب قارئ (الباركود) على مشترياتك تتحوّل إلى ورقة مليئة بالكلمات والأرقام، ساعتها تكون ملزمًا بالدفع، إمّا نقدًا أو عن طريق الشبكة!

لا تملأ أوراق المجالس بالتصريحات، اجعل ما يخصّك غالبيّته البياض، حتى لا تلزمك المواقف أن تدفع!

ورُبّ كلمة قالت لصاحبها دعني، ولا أتحدث الآن عما يكون من البذاء وقلّة الأدب، فأنا أجلّك أن تكون

ممن لا زمام ولا خطام لألسنتهم، بل أتحدث عن كلام من (الدردشة) تقوله، لا يفيدك الآن، وقد يضرّك في الغد..

والكلمة كما يُقال: تملكها ما دمت لم تقلها، فإذا قلتها ملكتك!

وصدق القائل: لسانك حصانك، فلا تجعل هذا الحصان يجري بك في سباخ يتلطخ بطينها صفاء أيامك الجميلة.

إذن: لا تقل كل شيء! قل بعض ما لديك، وليكن أكثر ما لديك احتياطيًّا قد تحتاجه الآن أو بعد مدّة! المهم لا تغامر بخصوصيّاتك، فالناس يعتبرون تصريحاتك كالوعود المفتوحة!

وما تظنّ أنك تعني المزاح عندما قلته، سيظن السامعون أنّك تعني محض الجد منه!

الوثائـــق

لا أعدّ المواقف التي أكتشف بعدها أن كلماتي فيها باتت وثائق تدينني، والتزامات يجب عليّ الوفاء بها، بل ويصبح

المزح جدًّا! فالناس ليسوا في الفهم سواء، بل قد يكون كلامك هو موضع الإشكال، أو تعبير وجهك، أو نبرتك، فلا تكثر فيُكثر عليك.

لا تقل في مجلس عام أنا مرتّبي الشهري كذا، إذا كنت لن تستطيع أن تقرض من سيتصل بك بعد ساعة من ذلك اللقاء!

لا تخبرهم أنّ لديك سيارة إضافية، إذا كنت لن تتكرّم بإعطائها أحدهم بعد شهر أو شهرين؛ لأنّه أودع سيارته مركز الصيانة.

ولا تذكري أنّكِ سبق وأعرت الخادمة لفلانة، لأنّك ستجدين في الغد رسائل في جوالك من فلانات أخريات يطلبن منك أن تعيرينهن إياها!

نعم الكرم جميل ومطلوب، ولكن لا تجعله لازمًا لازبًا، بل دع لنفسك حرية عمله بنفس رضيّة، وحب وكرامة.

وتذكر: لا تضع نقطة، اجعل هناك متنفسًا! استخدم: ولي فيها مآرب أخرى.

الثلاث نقاط

نحن في واقعنا الاجتماعي في معركة صامتة قد نخسر فيها علاقات، أو نعود فيها مضرّجين بذكريات كانت جميلة فباتت محزنة! اجعل بينك وبين الآخرين مسافة من العبارات المائيّة إن صح التعبير، تلك التي لا لون لها ولا طعم ولا رائحة، ولكنّها تفيدك وقت الحاجة!

لا تكن دائمًا بين الخيارين، اجعلها ثلاثة خيارات أو أكثر، بل أضمر من الخيارات في نفسك ما شئت بكلمة: أخرى، أو أيضًا، أو غير ذلك، أو بعض.. هذه الكلمات تتيح لك مساحة جيدة للمناورة الاجتماعية!

لا تقل هناك نوعان للشيء الفلاني، فقد يخطر ببالك نوع ثالث وأنت تتحدث! بل قل هناك أنواع .

لا تقل تعجبني كتب اثنين: ابن تيمية وابن القيّم، فقد يرد ببالك وأنت تتحدّث كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب، فتتمنى أن الذين أعجبوك ثلاثة! قل: يعجبني الكثير

من أمثال: ابن تيمية، وابن القيم.. فإذا تذكّرت ابن رجب قلت بلا إحراج: وابن رجب أيضًا! وهكذا..

لا تخنق نفسك بنفسك، أكثر في كلامك من العموميات، فالعموميات تجعلك تتحرّك بسهولة..

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ
لا يبلغ الورد حتى يعرف الصـدرا

كن حازمًا، لا تقل كلامًا يجعلك في ورطة، لا تحفر لنفسك حفرة، لا تغلق على نفسك في غرفة ضيقة ثم تضيع مفتاحها.

لا تكن عموميًّا لدرجة التلاشي، ولا تكن خصوصيًّا لدرجة التقييد.. عش بين إطلاقات تسمح لك بالحركة، ومخصِّصات تسمح لك بأن تكون واضحًا.

استخدم في أحاديثك الثلاث نقاط (...) كم هي جميلة هذه الثلاث نقاط، التي تتيح للآخرين أن يتخيّلوا عنك ما يشاؤون، وتتيح لك أن تقول في الغد: لم أقصد ما تخيّلتم!

اختصر

اختصر، فالحياة أقصر من أن تذكر فيها جميع التفاصيل، هات رؤوس الأقلام، ثم اترك لخيال الآخرين المجال ليملئوا الفراغ الذي تركته لهم.

هناك شيء من الجمال يكمن في (بعض) الغموض الذي يفرضه عدم ذكر جميع الأشياء.

وقد وضعت كلمة (بعض) بين قوسين، حتى لا تُحيل حياتك إلى رموز ومعمّيات! كن في المنتصف، حتى تنجو من تعقيد الإفصاح الزائد، وعماء الغموض الزائد!





﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً﴾







مشكلة دامت قرابة العشرين سنة انحلّت في نصف ساعة تقريبًا!



قانون ١١

﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ﴾

﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سأل الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني»(١).

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في سبب تنكير ﴿عُقۡدَةٗ﴾: «وتنكير عقدة للتعظيم، أي عقدة شديدة»(٢).

لـمّـا أمر الله سبحانه موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون داعيًا ومبلّغًا، علم موسى عليه السلام أنّ هذا أمرٌ عظيمٌ، يحتاج إلى أسلحة مميّزة حتى يستطيع إنجازه! يقول الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي لعنه الله عرف أنه كُلّف أمرًا

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٠٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١٢).

عظيمًا وخطبًا جسيمًا يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه، ويجعله حليمًا حمولًا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشؤون ومقاساة جلائل الخطوب»(١).

فكان من دعائه ﷺ مستجلبًا تلك الأسلحة المهمة: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ إلى آخر دعواته التي استجابها سبحانه فقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

المفتاح

علم موسى ﷺ أن اللغة هي مفتاح التواصل، وأنّه بلا آلة بيان سليمة، سينقص تأثيره، ولن يستطيع التبليغ الكامل لتفاصيل دعوته، يقول الجاحظ رحمه الله في سبب طلب موسى ﷺ من ربّه أن يحلل عقدة من لسانه: «رغبة منه في

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٦٠).

غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة»[1].

مشكلة موسى عليه السلام هي أنّ ذهاب تلك الحُبْسة ليس في مقدوره، فطلبها من الله تعالى، ونحن كذلك لدينا عقدٌ وحُبَسٌ تعيق تأثيرنا، وتجعلنا لا نتمكن من الاندماج السليم والاتصال الناجح، والغريب أنّه في مقدورنا تجاوزها، وأن نساهم في رفعها عنّا، ومع ذلك نلجأ إلى أسلوب التكيّف مع الحالة، مع أنّه بإمكاننا أن نلجأ إلى أسلوب تطوير الحالة!

سبحان الله!

كانت لدى أختي مشكلة في النطق، تجعلها تنطق حرف السين من مخرج حرف الثاء! استمرّت معها إلى المرحلة الجامعيّة! وكان ذلك الانحراف في المخرج يسبّب لها شيئًا من السخرية داخل المنزل وفي المدرسة، وذات ليلة قرّرت

---

(١) البيان والتبيين (١/ ٣١).

أنْ تحاول! لم نكن نظن أن ارتفاع هذا التعثّر النُّطقي يحتاج -فقط- إلى محاولة.

يبدو أنّها حرّكت لسانها في اتجاهات عديدة، إلى أن صادف لسانها مخرج السين الطبيعي، كانت سعادتها وسعادتنا لا توصف، فمشكلة دامت قرابة العشرين سنة انحلّت في نصف ساعة تقريبًا! أخذتْ أختي تلك الليلة تسبّح الله إلى قريب من الفجر (سبحان الله.. سبحان الله.. سبحان الله) ليس لأنّها تريد التسبيح، بل لتستمتع بصفير حرف السين! ولتحفظ مخرجه جيّدًا.

في كثير من الأحيان تكون مشاكلنا مضحكة الحل! تريد منّا فقط أن نقول: نريد الحل؛ فيأتي الحل مباشرة.

لنتعلم إذن

نتعلّم من موسى عليه السلام هنا ضرورة أن يتحلّى الشخص المؤثر بلغة بيّنة واضحة يستطيع بها أن ينقل إلى الآخرين القناعات والأفكار والرؤى، وأيضًا أن يسعى في تطوير ملكاته، وألا يرضخ لواقعه.

ساهم في حلّ عقد بيانك -إذا كنت مقتدرًا على ذلك- لأن الناس لن يقتنعوا بكلام لم يفهموه، أو لم يتبيّن لهم وجهه!

أحيانًا تكون عقدتنا البيانية ليس لها علاقة باللسان، وإنّما بالثقافة، والمعرفة، أو حتى في افتقارنا لبعض الطرق التي تجعل أسلوبنا أكثر وضوحًا وإقناعًا.

ولرفع العقد البيانيّة وسائل، منها:

القـراءة

اقرأ جيّدًا، فالقراءة هي العتبة الأولى لتكتسب ثروة لغويّة تمكّنك من صبّ قناعاتك في قوالب لفظيّة مناسبة، بل إن القراءة هي التي تكوّن أفكارك قبل أن تهمّ بنقلها للآخرين.

بدون قراءة ستعتمد على تجاربك الخاصّة حتى تكوّن وجهات نظرك، وعادة ما تكون التجارب الخاصّة ناقصة وقاصرة، لأنّك ترى ببصر واحد وتسمع بسمع واحد وتتأثر بمحيط واحد! بينما القراءة تتيح لك المجال أن تعيش حَيَوَات أخرى وتدرك أزمانًا أخرى وتتأثر بمشاهد لم تشاهدها من ذي قبل!

أوصيك بقراءة كتب ابن قيّم الجوزيّة، فهي نعم الزاد في المعاش والمعاد، وأخصّ منها: زاد المعاد في هدي خير العباد، وحادي الأرواح، وطريق الهجرتين، ومدارج السالكين، وروضة المحبين، والفوائد.

ولا تفت عليك فرصة قراءة تفسير الشيخ السعدي، وقراءة كتب تلميذه الشيخ ابن عثيمين في الفقه والنحو..

كتب الأدب -بالطبع بعد كتاب الله، وكتب العقيدة والسنة- فإنّها تثريك معرفيًّا ولغويًّا، وأخصّ منها كتب «الجاحظ» فإنّها تعلّم العقل قبل العلم، وحُسن التفكير قبل حُسن الكلام، وإن كنت تريد أن أدلّك على أميزها، فالبيان والتبيين فإنّه يكفيك ويغنيك بإذن الله، وعرّج على «عيون الأخبار» لابن قتيبة، و«زهر الآداب» للحُصَري، و«المثل السائر» لابن الأثير، و«العقد الفريد» لابن عبد ربّه..

ولكن لا تقرأ شيئًا من هذه الكتب حتى تقرأ كتاب الهاشمي «جواهر الأدب» فإنّه يمهّد الطريق حتى تستطيع أن تعي ما في هذه الكتب من جواهر ثمينة، وابتعد في بداياتك عن «الكامل» للمبرّد فهو صعب الطريقة، يغوص

في قضايا لا يفهم المبتدئ مقدّماتها، وهو كتاب أدب ألّف بنَفَس عالم لا أديب.

أما كتب المعاصرين فإيّاك إيّاك أن تنصرم ساعات شبابك دون قراءة كتب «علي الطنطاوي»، وأيّ كتاب لهذا الجهبذ مفيد جدًا، ثم أيّ كتاب يوصيك علي الطنطاوي بقراءته اقرأه ولا حرج.

أضف إلى ذلك كتب المنفلوطي والرافعي ومن في طبقتهم من أدباء العصر الحديث، حتى تستقيم لغتك، وتُصقل ملكتك.

الحفظ

لا بد من توافر محفوظ في عقلك، يعينك على استحضار ما أنت بصدد الحديث عنه، بل إن الحفظ مهم قبل أن يكون لديك ما تريد الحديث عنه، إنّه زاد النشأة الأولى لإدراكك!

والقرآن الكريم هو أهم ما يلزمك حفظه، فهو -فوق كون حفظه عبادة، وحفظ بعضه ضرورة دينية- جلاء للأفهام، ومنه تُستقى أنقى التصورات والمثل، ويمدّك القرآن بالفصاحة بل الجزالة والمتانة، ويعين ذائقتك على

تكوين قوالبها اللغويّة، فتجد أنّك وبلا صعوبة ترفع الفاعل وتنصب المفعول دون أن تدري شيئًا عن الفاعل والمفعول وذلك بسبب إدمانك على قراءة وحفظ هذا الكتاب العزيز!

قل قريبًا من ذلك في حفظ سنّة النبي ﷺ، فعليك بمطالعة «رياض الصالحين» للإمام النووي، اجعله كتاب الوسادة كما يقال، انظر فيه دائمًا، ولا يخلو يوم من أيامك دون أن تقرأ وتتأمل في أحاديثه.

أما طالب العلم فهو أدرى بما يقرأ، ولست أنا من أدلّ طلاب العلم على ما يبدؤون به وما يقرؤون، فلديهم قنواتهم المعرفيّة التي لست من ضمنها!

ولا تُخل ذاكرتك من حفظ الشعر الجيّد، وأختصر عليك مشوار الشعر القديم بكتاب الحماسة لأبي تمّام، فقد جمع فيه أجود وأعذب ما قاله العرب قديمًا، ثم جاء الشيخ أبو مالك العوضي فانتخب من الحماسة أجمل ما فيها، فعليك بكتابه اللطيف، واجعل من خططك المعرفية أن تحفظه أو أغلبه، وتعي معانيه، لأنّ الثروة التي ستتمتّع بها جمجمتك جرّاء هذا العمل لا تقدّر بوصف!

أما الشعر الحديث فعليك بشعر عبد الرحمن العشماوي، فهو يمدّك بالفصاحة، ويمدّ قلبك بدماء العزّة، ويمدّ روحك بهموم الأمة الإسلامية!

الإلقـــاء

ثم بعد ذلك إن وهبك الله القدرة على صياغة أفكارك، وترتيب كلامك فالحمد لله، وإلا فإن هناك كتبًا ودوراتٍ تفيدك في هذا الجانب، حتى وإن لم تكن تنوي أن تكون محاضرًا، فإن حُسن إلقاء المعلومة، وسرد القصّة، ونقل الخبر مما يجعلك مقنعًا في جميع فصول حياتك.

ابحث عمّا يفيدك في هذا الجانب، ولا تتوغّل كثيرًا حتى تغدو موسوسًا، بل اعتبرها ملحًا يضيف لطعمك بهاء، ولا تستغنِ أبدًا عن بهاراتك الخاصّة، فلكل إنسان طريقته، وأسلوبه، وجاذبيّته الخاصة.





﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٌ﴾



الشهم يعامل الناس بالرُّخَص، ويعامل نفسه بالعزائم!



قانون ١٢

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ﴾

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ﴾ [الشعراء: ١٤]

مضى على مغادرة موسى عليه السلام مصر عشرة أعوام، مليئة بقسوة الغربة، وتعب الحياة، سمع فيها أحاديث كثيرة، ورأى مشاهد مثيرة، ومع ذلك مازال خطؤه عالقًا بذهنه، لم يمحه زحام الذكريات، ولم يُطْفِ توهّجه مرور الأيام، فقال عندما أمره ربه أن يعود إلى مصر لدعوة فرعون وملئه: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ﴾! إنه الذنب الغائب الحاضر في عقل موسى عليه السلام، الذي لا يخفتْ إلا ليُشع، ولا يختفي إلا ليظهر، ولا يتوارى إلا ليطل برأسه حاملًا معه ذكريات ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ بجميع تفاصيلها، وبكل وجعها.

هذا القانون الموسوي يعلّمنا ألا ننسى أخطاءنا، وأن نبقيها بنكهتها الأولى، وألّا تحوّلها الأيام إلى وجهات نظر قديمة، أو

ردّة فعل فرضه الموقف، بل لنُبقي الخطأ خطأ، حتى نستطيع أن نعتذر عنه، وأن نتخلّص منه بالطريقة السليمة.

كيف تمحو؟

البعض ذاكرته من معدن صدئ فيما يخصّ أخطاءه وعيوبه، ولكنها تتحوّل إلى ذاكرة من فولاذ متين فيما يخص أخطاء الآخرين وتجاوزاتهم في حقّه! وهذا من الكيل بمكيالين، بل من عكس القضيّة، فالشهم يعامل الناس بالرُّخَص، ويعامل نفسه بالعزائم! يقاضي الآخرين بالنسيئة، ويقاضي ذاته بالعاجل.

مما يُذكر أن الشيخ ابن عثيمين صَـدَف عن العلم الشرعي، وهجر شيخه السعدي خمس سنوات، وانصرف عن الدروس العلمية تمامًا، وانشغل بالزراعة والحصاد مع والده، وبعد تلك السنوات العجاف حنّت نفسه لدروس العلم، وأجواء المعرفة، فعاد إلى جامع الشيخ السعدي، ذلك الشيخ الوقور، والعالم الربّاني الذي يمتلك نفسًا تحتوي الجميع، يقول ابن عثيمين: «فما عاتبني الشيخ ولا

نَهَرَني لانقطاعي، ولم يقل لي لمَ غِبت؟ أو لم تركت العلم؟»

لقد قرر الشيخ السعدي أن ينسى خطأ تلميذه، وأن يعامله بالرُّخصة، بل إنّه قرّبه واحتفى به، واختصه بدروس خاصة، ومازال أثر ذلك التجاهل والتغاضي في نفس الشيخ ابن عثيمين حتى نفعه الله بشيخه الذي نهل عنه العلم، وبات وعاء من أوعيته التي نفع الله بها الفئام من الناس.

إذن: امحُ أخطاء الآخرين، لا تعاتبهم، تجاوزْ ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، إنّك بذلك تبني في نفوس النبلاء صروحًا من الجميل لا تهدمها الأيام.

وما أجمل ما قال إبراهيم ناجي في قريب من هذه المعاني:

أيها الساهر تغفو
تذكر العهد وتصحو

وإذا ما التام جرحٌ
جد بالتذكار جرحُ

فتعلّم كيف تنسى
وتعلّم كيف تمحو

آســـف

مشكلة الذاكرة أنّها مستبدّة كما يقال، تحتفظ بما تريد، وتنسى ما لا تريد، كن مستبدًا أنت الآخر مع ذاكرتك، وعلّمها كيف تحتفظ بالأشياء المهمّة، ويكون ذلك بأن تنشئ في عقلك غُرَفًا خاصّة بالأمور المهمة، إن الورقة التي لا تتبع تصنيفًا معيّنًا عادة ما تضيع، والذكرى التي لا تندرج ضمن مجموعة مشابهة لها تغور في تلافيف المخ، وتُنسى مع الأيام.

اجعل أخطاءك مهمة بالنسبة لك، وابن في عقلك غرفة مجاورة لغرفة مآثرك ومميزاتك، تكون لأخطائك في حق الآخرين؛ لأن كلمة آسف في بعض الأحيان لا تكفي وحدها، إن لم تدعمها بتأسُّفات متوالية، حتى تمحو وجهك القاتم من ذاكرة شخص ما.

هناك عبارة مفيدة تقول: «قد ينسى الصافع ما لا ينساه المصفوع» لا تكن صافعًا لأحد أبدًا، وإذا ما ندّت منك هفوة كنت فيها صافعًا لأحد ما، فحاول أن تمتلك ذاكرة مصفوع، حتى تستطيع أن تقول آسف بالطريقة اللائقة.

كشف الحساب

هناك لعبة نلعبها في بعض المجالس، يجب على من أراد أن يلعبها أن يكون حذرًا، لأنها تمسّ مشاعر الآخرين، ونظرتهم لأنفسهم.

مفاد اللعبة أنّ على كل فرد في المجلس أن يتحدث عن سلبية من سلبيات الشخص الذي عليه الدور، ثم على ذلك الشخص أن يدافع أو يشرح أو يعترف، ثم يأتي بعد ذلك دور الإيجابيات، وعادة ما تُظهر لك هذه اللعبة شنائع تنطوي عليها شخصيتك!

لعبتها مرة فقال لي ابن أخي: إنّ هناك موقفًا لن ينساه لي، فلما سرد الموقف، ولحسن الحظ كنت محتفظًا به، وبالتفصيل، مع أنّه حدث قبل مدّة كافية لتجعل النسيان يجتاح الموقف بتفاصيله، ولكن لأن ذلك الموقف بالذات يعني لي فقد احتفظت به، بتفاصيله وبنكهته الخاصة.

أخذتُ أشرح رؤيتي للموقف، والتفاصيل التي كانت غائبة عن الطفل الذي بات شابًا، فتهلّلَ وجهه، وابتسم

ابتسامة نادرة وأخبرني أنّه ولمدّة كان يتمنى أنْ يَمسح ذلك الموقف المؤثر، وشكرني أنّي ساعدته على أنْ يجعل ذلك الموقف السلبي إيجابيًّا جميلًا، فيه من معاني الحدب والاهتمام ما فيه.

والسؤال: كيف كنت سأشرح موقفي لو لم أكنْ محتفظًا بالموقف في ذاكرتي؟ أو لو أنّه سألني عنه بعد ذلك بمدة تجعلني أنسى التفاصيل؟ بل كيف سأمسح وجهي البشع من عقله لو لم يسألني أصلًا عن الموقف؟

يجب أن تمتلك القدرة على مسح المواقف السلبية من عقول من تعيش معهم أولًا بأوّل، امتلك دفترًا مثل دفتر كشف الحسابات، وسدّد ديونك الأخلاقيّة، واشطب على كل دين تم سداده؛ حتى تتمتع بابتسامات صادقة يغمرك بها أحبابك .





﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾



الـذيـن لا يخافون في الله
لومة لائم من خصائصهم أنهم
لا يقولون إنهم لا يخافون في
الله لومة لائم!



قانون ١٣

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]

عندما تقابل موسى ﷺ مع فرعون، لم يستنكف موسى عن الاعتراف لفرعون أنّه سبق وأن خاف منه، بل لقد تحوّل ذلك الخوف إلى فرار، هكذا بكل ثقة يعترف بخوف سابق، وبأنّه ليس «سوبرمان» لا يخاف أبدًا، بل هو إنسان يخاف، ويحذر، ويترقّب، ويفرّ أيضًا.

العاديّــــة:

اخلع عن نفسك أثواب التمثيل، كن صادقًا مع نفسك، واعترف بأنك خفت، وترددت، وفشلت، وأنّك متواضع الإمكانيات في الأمر الفلاني، وفلان أفضل منك في كذا، وأنّك تخشى من مواجهة الجمهور، وأنّك مهمل في عملك، وأنك تحب النوم.

ضع نقطة أمام رغبتك في أن تبدو الأفضل والأجمل والأحسن، تمتّع بالعاديّة، فهي إحدى أسرار السعادة في هذا العالم.

كان إنسانًا

اقرأ ذكريات علي الطنطاوي مثلًا، ستجده يتحدث عن نفسه بكل بساطة، ويرسمها رسمًا عاديًا بلا ألوان.

قرأت وأنا في العشرين ذكرياته فظننت أنّه بحاجة إلى شيء من الألوان ليبدو أجمل، ثم ها أنا الآن، وأنا في الأربعين أتذكّرها فأجدها صارخة بألوان الحياة الجميلة، وأن سرّ جمالها أنها بسيطة، غير متكلفة، يخبرك فيها الطنطاوي بأنّه ألّف كتابًا، ثم وبعدها بصفحة يخبرك أنّه درّس فتاة جميلة في بيتها، وأنّه خالسها النظر، يصارحك بأنّه محبوب ممن هم حوله، ثم يفاجئك بأن فلانًا كان لا يحبه أبدًا! وبهذا الخليط المتنوّع تتجلى شخصية ذلك الإنسان.

علي الطنطاوي في ذكرياته ليس عالمًا و لا أديبًا ولا مفكرًا ولا مؤرخًا بل هو إنسان فقط! وبإنسانيته البحتة بات عظيمًا.

النبـذة التافهة

هناك رغبة في النفس تقول لك: حـدِّث الآخرين عن مآثرك! أعطهم نبذة عن تاريخك الشخصي، أتحفهم بمغامراتك.. اسمع: لن تصبح عظيمًا في المستقبل ما لم ترجم تلك الرغبة بالحجارة!

ثم إذا لم يبق في يدك إلا حجر واحد، فسدّده باتجاه رغبتك في أن تكون عظيمًا! هذه الرغبة بحد ذاتها مشكلة يجب أن تحلها.

عاند ذلك الشعور، كلما أطلّ برأسه، حدّث من حولك عن إخفاق ما، عن تعثُّر ما، عن خوف ما.

عدت وأنا عمر

يحدثني أحد طلبة الشيخ ابن عثيمين أنّه خرج ذات يوم فوجد أنّه أقفل سيارته وقد نسي المفتاح داخلها، ثم وبعد محاولات إذ بالشيخ ابن عثيمين يخرج من المسجد بمعيّة بعض طلابه، ترك الشيخ هيبته ومكانته وشموخه جانبًا وتوجّه إلى طالبه، ثم أخذ أداة حديدية من الأرض وأدخلها

الشيخ من فراغ أعلى النافذة وفتح الباب، ثم واصل مشواره وهو ابن عثيمين! لم ينقص سنتيمترًا واحدًا!

ذهب عمر بن عبد العزيز مع أحد حُراسه إلى المسجد، فوطئ قدم رجل كان نائمًا في المسجد بالخطأ، فلم يعلم ذلك الرجل أن الذي وطئه أمير المؤمنين عمر، فقال له: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا! ثم همّ الحارس أن يضرب ذلك الرجل، فقال له عمر: دعه، إنّما سألني أمجنون أنت؟ فقلت له: لا!

القضيّة أسهل بكثير عند (الخليفة) عمر بن عبد العزيز من أن تثير ضجّة، أو أن تتحوّل إلى داحس والغبراء، القضيّة لا تعدو أن تكون سؤالًا وإجابة!

ميزة المتواضعين أنهم يعرفون جيدًا قدرهم، ثم يعيشون وفق تلك المعرفة، أما ما يأتي بعد ذلك من رفعة ومكانة فهذه تأتي مكافأة من الله، لا من شعورهم بذلك، ولا من حرصهم على ذلك، ولا من سعيهم في ذلك.

ليست مهمتك في الحياة أن تحصد إعجاب الآخرين، وأن تنال أكبر قدر من (اللايكات)! الحياة مدرسة، عش

فيها ولو لم تتخرّج، يكفيك أنّك تستمتع بفصولها الجميلة.

ولا نعرفـــه

ليس كل الناس عظماء، ولكن من العظمة أن تلغي من رأسك شعور العظمة، وفكرة أن تكون في المستقبل شيئًا هائلًا، فأجمل شيء يمكنك أن تناله هو أن تبتسم بصدق، وتشرب كأس الشاي بهناء، وتزور صديقك وأنت مشتاق إليه بالفعل.. غير ذلك رتوش غير مهمّة.

وللأمير زياد بن أبي سفيان فلسفة عاقلة في «أنعم الناس عيشًا» يختصرها بقوله: أنعم الناس عيشًا «رجل له دار يسكنها، وزوجة صالحة يأوي إليها، وخادم، وكفاف من العيش، لا يعرفنا ولا نعرفه»[1].

رجـــل الحقـــل

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ أنا فررت في يوم من الأيـام، ليس للمراوغة والمناورة، ليس لآتي بجيش عرمرم وأسحقكم

---

(١) غرر الخصائص الواضحة (ص: ٥٩١).

به، ليس لأني مللت من هذه الحرب التافهة.. لا. بل لأني خفتكم! بكل صراحة خفت منكم ففررت، هذا كل ما في الباب! هل غدوت بشعًا في نظركم؟ هل سقط من خيالكم ذلك الفارس الملثم الذي لا يُهزم؟ جيد.. أسقطوه، وتعاملوا معي أنا، أنا الذي أخاف، وأفر وأهزم، أنا الذي أضحك وأبكي وأنام، أنا الذي آكل وأجوع وأسقط وأنهض، أنا الممرغ بتراب العادية، أنا الذي يكمن تميّزي في أني عرفت حدودي الجغرافيّة، فلم أصنع لنفسي صنمًا من ورق، يحترق عند أول اختبار، أنا الذي أمامك، ولست الذي في خيالك، الذي في خيالك كائن لا علاقة لي به.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ درس في الوضوح، وعدم التشبّع بالزيف، وقد قال النبي ﷺ: «**المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**»[1].

إنهم يشبهون رجل الحقل، ذلك الذي تهابه الغربان، وهو أجوف لا يبدي ولا يعيد، ما هو إلا أن تهب ريح متوسطة القوة حتى يخر ذلك الرجل الفارغ بين سنابل الذرة، فيظهر

(١) صحيح البخاري (٧/ ٣٥).

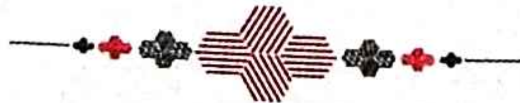
أن أصغر سنبلة أطول منه، وأن أجوف جذع أصمد منه، وأن أجبن غراب أشجع منه.

ثقل الأساور

اخلع الأساور التي أثقلت شخصيتك بها، وامسح كميات المكياج الذي صبغت به ملامح روحك، وانطلق بعفوية، صدّقني ستكتشف أنّك كنت في سجن من صنع نفسك، كنت تستمتع بأكاذيبَ يعلم كل من حولك أنها أكاذيب!

لا تدّع أن قرار الفصل من الوظيفة لو جاءك فلن يؤثر فيك، لا تقل إن التعهد الذي وقّعته في الصباح ليس هو سبب عبوسك بقية اليوم، لا تزعم أنك ستقول كلمة الحق وأنك لا تخاف في الله لومة لائم.

الذين لا يخافون في الله لومة لائم من خصائصهم أنهم لا يقولون إنهم لا يخافون في الله لومة لائم! ضع خطين تحت هذه، ثمّ كن كموسى عليه السلام في واقعيّته، وعفويّته، وعاديّته.





﴿ فَعَلْتُهَا ﴾





عندما كنّا صغارًا، كنّا نسقط على الأرض ثم ننهض، ولا نعتقد أنّ ذلك السقوط نهاية شموخنا، أو الحلقة الأخيرة في مسلسل عظمتنا وكبريائنا.





قانون ١٤

﴿فَعَلۡتُهَآ﴾

﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت رباطة جأش موسى وتوكله على ربه باعثة له على الاعتراف بالفعلة»[1].

امتثل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر ربّه، وذهب إلى فرعون لدعوته إلى الله، فكان أوّل ردود فرعون على موسى تذكيره بماضيه، فقال له: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾!

فكان ردّ موسى العظيم واضحًا، مُنهيًا الجدل في هذه الجزئيّة، منتقلًا لقضايا أهم: ﴿فَعَلۡتُهَآ﴾!

دعونا نرجع إلى الماضي قليلًا، نرجع عشر سنوات إلى الـوراء: رجل ميّت، وموسى واقف بالجوار منه، ويده

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٣).

مازالت مقبوضة جرّاء الوكزة التي سددها له، ومع أنّ الموقف حادّ النبرة، واللحظة ساخنة التفاصيل إلا أن موسى اعترف وهو ينظر إلى القبطي وهو مُمدد على الأرض، وإلى الإسرائيلي المظلوم وهو يلهث، اعترف بأنّه أخطأ، فقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لم يسوّغ لنفسه، لم يقل نحن مظلومون، ويحق لنا أن ندافع عن أنفسنا بأي طريقة، لا.. اعترف بشجاعة وقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: أنا أخطأت، وضللت عن جادّة الصواب، وهذا الخطأ أقرب إلى إضلال الشيطان منه إلى هداية الرحمن.

وبعد سنوات أراد فرعون أن يحـوّل هذا الخطأ إلى قضيّة رأي عام، وأن يؤلّب بسببه الناس ضد موسى، لم يجعل موسى هذه النيّة الخبيثة من فرعون سببًا في أن يغيّر استراتيجيّة الاعـتراف بالخطأ، ويحوّل الموضوع ليُشعر فرعون أنّ الخطأ كان من القبطي، بل وبرجولة شامخة: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

كان الخطأ في اللحظة الأولى خطأ، ثم وبعد مرور عشر سنوات نكتشف أنّ الخطأ ما زال خطأ! لم تحوّله تلك الحقبة

الزمنية، والظروف النفسيّة، والتغيّرات الحياتيّة إلى شيء آخر!

يقول لنا قانون ﴿ فَعَلْتُهَآ ﴾: اعترف بأخطائك، لا تحوّل أخطاء الماضي إلى تحف تحتفظ بها في دولاب مآثرك وحسناتك، دع الأخطاء أخطاء، والتعثرات تعثرات، واعترف بها، وقل: ﴿ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

دستور العَظَمة

نظريّا نؤمن جميعًا أننا نخطئ، ولكن عادة ما يخذلنا التطبيق!

أخطأ أبو ذر على بلال، وعيّره بلونه، ثم لمّا شعر أبو ذر بفداحة خطئه وضع وجهه على الأرض وقال لبلال، لن أنهض حتى تضع رجلك على وجهي! بالطبع لم يفعل بلال ذلك، بل أنهضه واحتضنه كما يفعل الشرفاء دائمًا.

لا تضع وجهك على الأرض، ولا تطلب من أحد أن يطأ وجهك كما فعل صاحب النفس الرهيفة أبو ذر رضي الله عنه ولكن فقط قل: آسف ، أخطأتُ في حقّك، سامحني، هل مثل هذا العمل صعب؟

عوّد نفسك على «آسف» لأنك بذلك تزكّي نفسك فتفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ ثم إنّك تخلق أجواء صحيّة في مجتمعك، لأنّ شيئًا من العدوى الإيجابية تحدث، فالآخرون يرونك عظيمًا عندما تعترف بخطئك، وذلك يجعلهم يسعون لتطبيق دستور العَظَمَة مباشرة!

ثم أرجوك لا تقل (آسف، ولكن) لا تطفئ جمال الاعتذار بـ(لكن) هذه، قل آسف وضع نقطة بعدها، اعترف بخطئك، ثم انس التفاصيل، لا تقل:

ولكنّك من ابتدأ..

ولا: لم أكن أقصد حرفيّة ما قلت..

ولا: إنّك لم تفهمني جيّدًا..

قل: آسف بلا أي بهارات أخرى! انكسر قليلًا في هذه الحياة، لن تعرف للشموخ طعمًا ما لم تذق شيئًا قليلًا من الانكسار، كهذا الذي تشعر به نفسك بعد «آسف» ثم صدقني أنّه انكسار لقنه غرور ما لأنفسنا، فاقتنعت هذه الأنفس البريئة بهذا الغرور، ثمّ سمّته أنفة، شموخا، عزّة.. ومشكلتنا أنّنا صدّقنا!

ثم أتريد الحقيقة؟ والله لم أسمع آسف من جهة، إلا ورأيت شبه انكسار في الجهة المقابلة! إنّ النّاس يخضعون تلقائيًا لمن يعترف لهم بأنّه أخطأ! لن أستشهد على هذا بقصّة ولا بموقف، سأحيلك إلى نفسك، ماذا تشعر به على وجه التقريب عندما يقول لك صاحبك: أعترف بخطئي؟ ألا تشعر بشيء في نفسك يشبه: بل أنا الذي أعترف بخطئي؟

فلسفة السقوط

عندما كنّا صغارًا، كنّا نسقط على الأرض ثم ننهض، ولا نعتقد أنّ ذلك السقوط نهاية شموخنا، أو الحلقة الأخيرة في مسلسل عظمتنا وكبريائنا، تلك الأرواح الطفولية الجميلة هي التي يجب أن نستجلب طاقتها لنعيش بها، ليس السقوط نهاية التاريخ، ولا بدايته أيضًا، السقوط سقوط وحسب.

ديننا يعلمنا أن نقول: أستغفر الله، أن نقول: أبوء بذنبي، أن نقول: تبت إلى الله. كل هذه دروس في الاعتراف بالأخطاء، صحيح أنّها تقال لله، ولكن شيئًا ما ينبغي أن يحدث للنفس الزكيّة، يجب أن تستجلب هذا الخلق في

تفاصيل حياتها، اطلب الآخرين أن يتجاوزوا عن أخطائك، وقبل ذلك اعترف بها، اجعل ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أحد دساتير حياتك الاجتماعيّة.

إننا لولا الأخطاء لم نتعلّم، ثم فجأة نتكبّر على الأخطاء، ولا نريد أن نعترف بها!

المـــرارة

فيزيائيا: المشي هو سقطات متلافاة! إذن الوقوع أرضًا هو السقطة التي لم نتلافاها! السقطة التي امتلكت حريّتها، هي السقطة الصريحة، ضمن عدد من السقطات المقنّعة، نعم نتألم عندما نسقط، كما نصاب بإحراج عندما نعترف بالخطأ، ولكن ذلك الألم، وذلك الإحراج يعلّمنا ألا نسقط، أن نحاول ألّا نخطئ مرّة أخرى، كي لا نضطر لألم آخر.

إننا إن قلنا ﴿فَعَلْتُهَآ﴾ مرّة، وتذوّقنا مرارتها، سنعاهد أنفسنا ألا نقع في الخطأ مجدّدًا، ألّا نتهوّر في فصل جديد من فصول حياتنا، حتى لا نقول ﴿فَعَلْتُهَآ﴾ مرّة أخرى، حتى لا نتذوّق ذات المرارة، في موقف آخر، واعتراف آخر.

عوّد نفسك على الانهزام في المعارك الصغيرة، حتى لو رأيت بوادر الانتصار تلوح لك، غيّر استراتيجية معركتك، وقدّم النصر كهديّة لخصمك، اجعله يفوز عليك، وأذق نفسك شيئًا من قهر الهزيمة، لن تعترف بأخطائك الكبيرة وأنت تحمل نفسًا تريد أن تستحوذ على كل الامتيازات الممكنة، حتى الانتصار في نقاش عَرَضي، لا طعم له ولا لون ولا رائحة، تريد الفوز فيه! كلّا، كن أكبر من ذلك.

اطلب من خطّاط مجيد أن يصنع لك لوحة، ينحتها على خشب السنديان إن أمكن، واجعل عليها حكمة بالغة تقول: «ليس شرطًا أن أنتصر في جميع المعارك»، ثم علّقها في مكان واضح من مجلسك، بهذه الطريقة تتروض نفسك على الاعتراف بأخطائها.

عمر بن عبد العزيز عندما انطفأ سراجه، أراد ضيفه أن يقوم بمهمة إيقاد السراج، فرفض عمر وقام هو بتلك المهمّة الصغيرة، ثم عاد ودوّن عبارته التاريخية: قمت وأنا عمر، وعدت وأنا عمر! بهذه النفس التي روّضت ذاتها على القيام

بالأمور العاديّة، امتلك عمر فيها بعد نفسًا قامت لله بالأمور العظمى، وهذا من معاني التزكية، فكلمة ﴿زَكَّىٰهَا﴾ تشير إلى أنّ هناك تزكيات متتابعة حدثت في التاريخ الشخصي لذلك المزكّي نفسَه.

أخيرًا، أقنع نفسك أنّك لست الإنسان الأهم في هذا الكون، وأنّ المجرّة يمكنها الاستمرار دونك، وأنّ أخطاءك وصواباتك، وعيوبك ومحاسنك، كلّها لا تعني شيئًا في حقيقة الحياة، وعلى هذا فما دام أنها حياة عاديّة، حياة بسيطة، حياة لا تكاد تُرى، فعشها برجولة، وقل: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.



﴿ بَلْ أَلْقُوا ﴾

دع الحلقة الأخيرة من بطولتك وإنتاجك وإخراجك!.

قانون ١٥

﴿ بَلْ أَلْقُواْ ﴾

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حكمة كون البداءة من السحرة لا من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «أراد موسى أن تكون البداءة منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلَهم»[١].

خيّر السحرة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في إلقاء العِصيّ والحبال بين أن يكون أوّل من يُلقي، أو أن تكون الأولويّة من نصيبهم، فقال لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُواْ﴾ اختيارًا منه أن يكون الفصل الأخير من نصيبه، وأن يكون هو من يقول الكلمة الأخيرة، فألقوا حبالهم وعصيّهم كما اختار موسى، فسحروا أعين الناس واسترهبوهم، وجاؤوا بسحر عظيم، عند ذلك ألقى موسى

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٢٨٦).

عصاه، والأعين شاخصة، والأفئدة منتظرة، فإذا بتلك العصا تتحوّل إلى حيّة تسعى، وإذا هي تلقف ما يأفكون، وتبتلع أكاذيبهم، فتهتف القلوب: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾:

إذا جاء موسى وألقى العصا
فقد بطل السحر والساحرُ

تريّث

يقول لنا درس ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾: فاجئ خصومك!

ادّخر دائمًا في جعبتك العديد من المفاجآت التي تُخرجها وقت الحاجة، لا تستعجل في إخراج كل ما معك بداية الحوار أو المناظرة، اصبر قليلًا، فقد يكون الوقت المناسب لعرض هذه الحجّة لم يأت بعد.

ما أجمل أن تكون النهاية مليئة بـ(الأكشن) كما يقال! لا تحرِق فلمك من بدايته، دعهم ليستمتعوا قليلًا، اجعلهم يتوقعون أنّ الغلبة لهم، ثم بعد ذلك اقلب الطاولة، أو اجعل خصمك هو من يقلب الطاولة على نفسه!

تريّث في إخراج ما لديك من براهين وأدلّة دامغة، فليس

مهمّا أن ينبهر الجمهور في الخمس الدقائق الأولى، المهم هو أن يقتنعوا في الخمس الدقائق الأخيرة!

يوسف عليه السلام يجعل صواع الملك في وعاء أخيه، وفي اليوم التالي يبدأ بأوعية الإخوة باحثًا عن الصواع، ويجعل وعاء بنيامين آخر وعاء! وكأنّه يريد أن يباغتهم بعد أن تهدأ أعصابهم، ويطمئنّوا إلى أنّ الصواع لن يكون في رحل أحد منهم، وفجأة! يستخرج الصواع من رحل بنيامين! ولعلّ السبب في استخدام استراتيجيّة ﴿بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ هنا ليس الإقناع، وإنما الطمأنة، ونفي الشكوك.

دائمًا استراتيجية ﴿بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ تملأ الآخر بالطمأنينة، فتقوم أنت بالإجهاز عليه في لحظة يكون قد اطمأنّ فيها إلى أنّك خال الوفاض من الحقائق!

لا تكشف أوراقك

إذا انتصرت على خصم مبادئك القرآنية، وقيمك المحمّدية، منذ البداية فقد أحرقته مرّة، وإذا انتصرت عليه بعد أن شارف على حصد الهتافات والجوائز فقد أحرقته مرتين وأكثر.

اجعله يُسهب في تمثيل دور الـمـُحقّ، بل إن استطعت أن تمثّل دور المنهزم فشيء جميل، ثم دع الحلقة الأخيرة من بطولتك وإنتاجك وإخراجك!

كان الرسول ﷺ يدع خصومه يتكلمون ويسردون ما لديهم من إغراءات وعروض، ثم يسأل أحدهم: أفرغت؟ ثم إن قال له نعم، صبّ على تلك العروض والإغراءات ذَنوبًا من النور فباتت كأن لم تغنَ بالأمس!

أنا أفترض أنّ معركتك معركة حق وباطل، وأنك فيها صاحب الحق لذلك أطرح عليك بعض الخطط، أما إن كنت مُبطلًا فلن تجدي هذه الخطط معك، لأن من طبيعة الباطل أن ينتفش أولا، ثم ينخنس آخرًا: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١].

يقول العامّة: العبرة بمن يضحك في الأخير، وهذه نظرة فاحصة في طبيعة المناظرات، فالحق والباطل يدالان من بعضهما!

فلا شك أن النبي ﷺ وصحابته الكرام كانوا على حق في بدر وأحد وفتح مكة وكل المغازي والسرايا، ومع ذلك فقد

انتصر النبي ﷺ في بدر وهُزم في أحد، ولكنّ العبرة هي فتح مكة؛ لأنّها الجولة الأخيرة في سلسلة المغازي والسرايا التي انمحق في آخرها جيش الكفر!

تذكّر: لا تكشف أوراقك!

كان النبي ﷺ يورّي في الغزوة بغيرها، فإذا أراد غزو جهة سأل عن جهة أخرى ليوهم من حوله أنّ مسيره سيكون إلى تلك التي سأل عنها، فيقطع بذلك على العيون والجواسيس أن يوصلوا لأعدائه نبأ مداهمته لهم، ثم لا يصبحون إلا وقد أحاط بهم الجيش الإسلامي ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧].

الفــخ

احفر لخصمك حفرة، ثم دعه يسقط فيها دون أن يشعر، وتولّ أنت مهمّة إهالة التراب عليه!

ومن أفضل من رأيته يتقن فن حفر الحُفَر، الشيخ أحمد ديدات رحمه الله فقد أوتي في مناظراته قوّة خاصّة يستطيع بها أن يناور جيّدًا، ثم يفاجئ خصمه بحجّة ما كان يظنّها ذلك الخصم حاضرة، وواضحة بهذا الشكل!

عاصفــة

لماذا تحرص على أن تُنهي الحوار من بدايته؟ دع الصفيح يسخن قليلًا، ثم تذكّر: الكلمة الأخيرة هي التي تبقى في الذاكرة، فكن أنت صاحبها..

واستخدم تقنيّة الأسئلة، دائمًا السائل يُرى الأقوى، والمجيب يُظن أنّه الأضعف، فإن استطعت أن تكون سائلًا لا مجيبًا فافعل:

ولو أني جُعلت أمير جيش
لما قاتلــت إلا بالســؤال

فإن الناس ينصرفــون عنه
وقد ثبتوا لأطراف العوالي

ومن أذكى من طبّق استراتيجية ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد كان يعرض في مناقشاته لأقوال الفرق الضالة حججهم ببيان فريد، واحتجاج قوي، حتى يخيّل للقارئ أن الشيخ يؤيّد هذا القول، بل كان يتمحّل لهم الحجج التي ما خطرت في عقولهم، ثم بعد أن يشعر

صاحب القول أنّ قوله قد استقرّ واشمخرّ إذ بعاصفة تيميّة تدمّر كل قول بإذن ربّها، فتترك ذلك الضلال كأمس الدابر، وبئر معطّلة وقصر مشيد.

أحضر حججك

ومما تعلمنا إيّاه قاعدة ﴿بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ درس: أحضر حججك!

يحزنني كثيرًا عندما يتجشّم ضال ما ويجمع كيده ثم يأتي، فلا يجد معسكر الحق والإيمان من يوجهونه لمناظرته ومحاورته إلا من تذوب تأتآته في بحر شبه ذلك الضال، وتغرق همهماته في سيل ذلك الأفاك الأثيم!

إن المناظرة لا تعتبر السن من كفاءاتها، ولا التاريخ الدعوي، ولا حتى العلم البحت، إن أهم ما تقوم عليه المناظرات الذكاء العلمي، القدرة على الهجوم، والقدرة على حفر الحفر، والقدرة على استخراج المتناقضات من كلام الخصم، وهذا كلّه يندرج تحت اسم واحد هو (الحجّة).

الحجاج والمناظرة فن، لا يجب أن تجرّبه على مشهد من

الملأ، فقد تخسر الرهان، ويخسر بخسارتك المشاهد عقيدته، أو قوّته الإيمانية.

أحضر حججك في جميع تفاصيل حياتك، لأنّك تتحرّك وتحيا وتتحدث وفق قناعات -أو هكذا ينبغي- فلا تعمل ما لا يمكنك الإجابة عن الإيرادات التي ترد حوله.

اعتذر عن أي سؤال لا تحضرك إجابته، ولا تغامر بالحقيقة في سبيل أن يقال عنك سريع البديهة، الحجّة في كثير من الأحيان لا تكون حاضرة، فلا عيب أن تؤجل الحوار لتزيد من بحثك حول المسألة، ولتتأمّل جيدًا فيما ستقوله، بل وقبل ذلك وبعده لتنقي نيّتك من شوائب الرياء والسمعة، وأن تجعل كلامك كلّه لله.

فرصة التناقض

اجعل تناقضات خصمك فرصة سانحة لإلقاء عصاك، لتبطل سحر شبهه، وأقواله!

يدهشني بعض أساتذة المناظرة عندما يفحم خصمه لا

بعلمه هو بل بتناقضات خصمه! هنا الأستاذية والذكاء والخبرة عندما تتحدث وتتجلّى.

فليس كل حجّة هي من متين العلم، بعض الحجج عبارة عن حفرة تتقن حفرها، ثم تلقي خصمك فيها ليتردّى مع شبهه وضلالاته.

كنت في مجلس فقال أحدهم: إن علم الشريعة حق مشاع للجميع، ويمكن للجميع القول فيه، وإبداء وجهات النظر حوله.

فعلم أحدهم أن هذا المتحدث لا بد وأن يتناقض، فأمهله إلى أن جاءت الفرصة! فقد تغيّر مجرى الحديث، وأخذوا يتحدثون عن فلان المصاب بالسكر، فقال صاحبنا لذلك المتحدث: أخبر فلانًا أنّ له أن يأكل ما شاء من السكر، فلن يضرّه بإذن الله! وأصرّ صاحبنا على كلامه، فقال ذلك المتحدث: هل أنت طبيب حتى تقول مثل هذا الكلام الخطير؟

فقال صاحبنا: لا، ولكن علم الطب حق مشاع للجميع، يمكن للجميع القول فيه، وإبداء وجهات النظر حوله!

فنظر الجميع إلى المتحدِّث وقد علموا أنّه قد وقع في حفرة عميقة؛ تجعله ينقض بنفسه كلامه الأول أو الثاني ولا ريب.

بعض الحجج تحتاج إلى مناورة قليلة حتى يأتي الوقت المناسب لتفاجئ بها خصمك، فلا تستعجل، شيّد بنيان أقوالك، وسيّج حججك بشيء من المناسبات الجماهيرية، فهذا موسى عليه السلام عندما أراد فرعون مناظرته اختار يوم العيد، ووقت الضحى، ولحظة تجمهر الناس حتى يلقي العصا التي لقفت ما يأفكون.





﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾







ليست مهمّتك أن تزخرف أعمدة الزيف التي امتلأت بها الحياة، بل مهمّتك أن تهدم تلك الأعمدة من أساساتها، وتذكّر البشريّة أن هناك «اللّه»!



قانون ١٦

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ ﴾

﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾ [البقرة: ٦٧].

قُتل أحد بني إسرائيل، فاحتار الناس فيمن هو القاتل، فذهبوا إلى موسى عليه السلام يسألونه، فقال لهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾ فنسب الأمر إلى الله، والأمر من الله ولا شك، ومعلوم بدلالة الحال أن أي أمر يأمر به موسى عليه السلام هو من الله، ومع ذلك فقد نصّ موسى عليه السلام بأن الآمر هو الله تعالى، وذلك -والعلم عند الله- لعلمه عليه السلام بأن المأمور إن استشعر أن الأمر من الله تعالى سهُل عليه، ورضخ له، فكان للأمر قداسة، وله وقع خاص، هذا ما ينبغي أن يحدث للنفوس المؤمنة.

لله

مادام الدين دين الله، فأكثِر من طرق هذه الزاوية في نفسك ونفوس من حولك، لا تغفل وأنت في غمار الدعوة،

أو نشر العلم، أو بث الفضيلة، أن ما تقوم به هو ما يريده الله، وما يحبّه الله، وما لم يخلقك الله إلا لتقوم به! أيقظ أبناءك للصلاة وأخبرهم أنّ ﴿ٱللَّهَ﴾ يريدهم أن يستيقظوا للصلاة! انصح المغتاب أن يترك غيبته وأعلمه أن ﴿ٱللَّهَ﴾ يكره هذه الغيبة، ابتسم لأخيك المسلم، وتذكر أنّ ﴿ٱللَّهَ﴾ يحب هذه الابتسامة، ويسجلها عنده في ديوان الصدقة.

اجعل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ مفتاحًا لدعوتك، وإذا قلت ﴿ٱللَّهَ﴾ قف قليلًا، دع النفوس تسيح تفكُّرًا في هذا الاسم الجليل، لعل القلوب تنتبه إلى أنّ الله هو الملك العظيم، الرب الجليل، الرحمن الرحيم، الفعّال لما يريد.. فتخبت، وتنصاع، وتسلّم له القياد، عند ذلك، تكون قد فعلتَ أعظم ما يمكنك أن تفعله، لقد جعلت الناس يقومون بالأمر الذي خلقهم الله لأجله: عبادته وحده.

مرتبة الشرف الأولى

إن القلوب التي تربّت على مبادئ الطين، خَفَتَ فيها الشعور بالله! وإيقاظ هذا الشعور من حِكَم إرسال الرسل

وإنزال الكتب وسنّ الشرائع، إيّاك أن ترى أمارات هذا الجدب فيمن حولك، ثم لا تخطط لاستحياء القلوب الجرداء، المتعطّشة لـ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾!

هذا شعيب عليه السلام لما عَلِم أنّ قومه لم يرجموه لأجل مكانة رهطه وقبيلته ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود: ٩١]، لم يفرح بهذا الأمر، لم يعتدّ بقبيلته، ويكتب قصيدة في مآثرها حتى يحيط نفسه بسياج إضافيّ من الأمان، لا، بل صرخ في قومه الذين نسوا الله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾؟

ليست مهمّتك أن تزخرف أعمدة الزيف التي امتلأت بها الحياة، بل مهمّتك أن تهدم تلك الأعمدة من أساساتها، وتذكّر البشريّة أن هناك ﴿ٱللَّهَ﴾!

أتقن مهمّة نسيان نفسك في خضم دعوتك! نعم، حاول أن تدرّب نفسك على نسيان نفسك! لأنّ أفتك مرض يصاب به الداعية إلى الله أن يتحوّل من داعية لله إلى داعية

لنفسه! من تذكير الناس بأنّ الله أكبر، إلى تذكير الناس بأنّه حصل على شهادة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى، من إحياء ذكر يوم القيامة في النفوس إلى إحياء ذكرياته الخاصة عندما حفظ القرآن وجَرَدَ كتب التراث!

أنت هامش، ركّز على المتن، والمتن هو أن تُسمع العالم كلمة «الله أكبر» بمعناها الحقيقي الضخم الفخم، هذا الإسماع، وهذا البلاغ هو مرتبة الشرف الأولى الحقيقية، وما سوى ذلك وهم.

حركة أم عبادة

عليك أن تستشعر عندما تصلي أنّ هذه الصلاة أمر من الله، عش لحظات قبل أن تكبّر لصلاتك وأنت تتخيّل رحلة المعراج، وكيف أنّ الله عرج برسوله ﷺ ليأمرَه أمرًا خاصًّا بهذه الصلاة التي ستصليها بعد قليل.

قل مثل ذلك في الصيام والحج، وسائر الطاعات.. دائمًا استشعر أن الله أمرك بها، هذا الاستشعار سيلقي بظلال الهيبة على ذلك الأمر، وستقوم به بخضوع يليق بالآمر والأمر.

إن الغفلة عن الآمر يجعل العبادات حركات ميّتة لا حياة فيها، والحكمة من مشروعيّة هذه العبادات ليس مجرّد القيام والجلوس، بل أنْ يكون القيام في صلاتك عهدًا بينك وبين الله أن تقوم له في كل حياتك بما أمرك الله به، ويكون جلوسك في صلاتك عهدًا بينك وبين الله أن تجلس عن كل ما نهاك عنه، هذه المعاني الجليلة وما شابهها إنْ غمرتَ بها عبادتك، تنتقل من كونها حركة إلى كونها عبادة يحصل بها للقلب من المنازل والدرجات ما لا يمكن تخيّله.

الكافر وهو كافر يوقن أنّ لا إله إلا الله ليست كلمة وإنّما حياة، لذلك رفض عرض النبي ﷺ أن ينطق بكلمة تجعل العرب والعجم يدينون له بها لما علم أنّها: لا إله إلا الله.

وقوم شعيب عليه السلام كذلك سألوه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؟ إنّهم موقنون أنّ هذه الصلاة تأمر وتنهى، وليست حركات جوفاء!

والشريعة دائمًا تربط بين العبادة والمعبود، ولا تفصل بينهما، وكلنا يعلم أن الإحسان هو «**أن تعبد الله كأنّك تراه**،

فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك» وقد نهى النبيّ ﷺ المصلي أن يبصق في الصلاة قِبَل وجهه، وفسّر ذلك بأن الله تعالى يكون أمام المصلي! هذا ربط إن شئته مباشرًا وإن شئته غير مباشر بين العبادة والمعبود سبحانه.

إذن دائمًا أضف لأسئلتك عن زمان ومكان وكيفية العبادة سؤالًا أهم منها كلها وهو: لمن أصلي؟ هذا السؤال سيجعل أمر الزمان سهلًا، لأنّك إذا استشعرت من هو، فسيهون عليك متى يريد أن أفعل، قل مثل ذلك في المكان والكيفية، وإن شئت الدقة، فلا تضف هذا السؤال لتلك الأسئلة، بل أضفها هي إليه، واجعله يسبقها، ويتقدمها، ويأتي قبلها دائمًا.

مكمن الهدايات

سمعت من أحد الدعاة -جزاه الله خيرًا- سؤالًا مهمًا، يقول فيه: هل سبق وأن عملت أمرًا ما لأنّك سمعت آية تأمرك به؟

وحزين أنا لأني سمعت هذا السؤال من ذاك الداعية كثيرًا،

ثم في المقابل لا أذكر أنّي سمعته من غيره! مع أهميّته ومحوريّته..

كم عدد العبادات التي عملتها لأنّك سمعت الله يأمرك بها في القرآن الكريم؟ لا لأنّك نشأت عليها؟ أو لأن المجتمع كلّه يفعلها؟

ومما كان يذكره ذلك الداعية الموفّق أنّ على المؤمن أن يربّي نفسه على جلسات قرآنية، يكون مقصوده فيها أن يسمع كلام الله، ويتدبّره، ويتلقى أوامره ليعمل بها، ونواهيه ليزدجر عنها.

اعتدنا أن يكون سماعنا للقرآن عند قيادة السيارة، أو قبيل النوم، أو في أوقات الفراغ، وهذا حسن لا مشكلة فيه، ولكن هنا درجة من الاستماع عزيزة، وهي أنفع ما يكون في الاستماع للقرآن، تلك التي يسبقها تطهّر، ثم تفريغ من وقتك الثمين لهذا العمل الجليل، فالقرآن الذي نزل به أمين السماء على أمين الأرض يستحق أن تفرّغ من وقتك له، لا أنْ تكتفي بالأوقات الميّتة لتجعلها من نصيبه! عند هذا الاستماع ستجد الهدايات الكامنة، وستنهال عليك فتوحات

التدبر، وبركات هذا الكتاب العزيز.. ومن معاني عزّته أنّه لا يعطي كنوزه الثمينة إلا لمن أذل نفسه وأخضعها للاستماع والتدبُّر.. لا أن يكون ذلك عَرَضا، في أوقاتك التي لم يتفق لك أن تملأها بشيء من الدنيا!

التردد في ذات الله

مما يحسن الاستطراد بذكره هنا، معنى عميق، نادرا ما يُتَطرّق إليه، فالناس يتحدثون عن العمل لله، والترك لله، ويُغفلون معنى التردد لله!

فليست كل الأمور واضحة تمام الوضوح حتى تعملها إذا بان لك مشروعيّتها، أو تتركها إذا بان لك عدم مشروعيّتها، لذلك فاجعل في نفسك خانة للأمور التي لم يتبيّن لك فيها رأي واضح، لغموض الأدلة عليك، أو لخفائها عنك، أو لجهلك بها، أو لغير ذلك، هنا يجب عليك أن تتردد لله، ألا تخوض في مثل هذه الأمور لا أمرًا ولا نهيًا ولا عملًا، هنا تردد قبل أن تجزم في المسألة، تردد قبل أن تعمل أو تترك، واحتسب أجر هذا التردد عند الله.. وأخلِق بمن يتردد لله أن

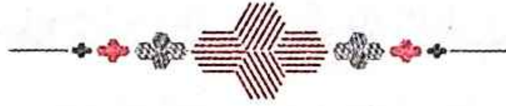
يرزقه الله هدايات يعلمها، لأنّ الورع هو أخو هذا التردد، وما تردد جريء على الله أبدًا! تجد الجريء على الله، وعلى دين الله خوّاضًا في كل مخاضة، يتحدّث في كل محفل، يكتب كل ما يعنّ له، قليل النكوص عن قول قال به، ويرد قول المعترض قبل أن يعي وجه الاعتراض.

إذن لنحيي معنى التردد في ذات الله، ولنتهيّب الخوض في كل شيء، وهذا معنى لن يحييه في القلب إلا استشعار أنّ هذا الدين لله، وهذا الأمر من الله، وهذه أمور بينها وبين دين الله سبب متين.

الصـــــدأ

علينا أن نقول للناس إنّ ما نأمرهم به من خير وهدى وصلاح هو أمر الله، يجب أن نزرع في النفوس تعظيم الآمر سبحانه، وأن نبدئ لهم ونعيد هذا المعنى، وألّا نكتفي بما نظن أنّه معلوم من الدين بالضرورة لديهم، وأنّ الجميع يعلم أن هذا هو دين الله، وأنّ هذه هي أوامره ونواهيه.. فالنفوس تنسى، والإيمان يخلق في القلوب، والمعاني الجليلة

يطرأ عليها الصدأ، فلا بد والحالة هذه من التذكير، ولعل كلمة تقولها اليوم قد قلت ما هو أحسن منها بالأمس، ولكنها تلامس اليوم من النفوس ما لم تلامسه بالأمس، لمزيد إخلاص عندك، أو لتفرّغ نفسي عندهم، أو لبركة شخص حاضر اليوم لم يحضر بالأمس، أو لأمر لا تعلمه، الله يعلمه.







﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾





ما اسم صديق الإمام أبي حنيفة في طفولته؟ وابن خالة أحمد بن حنبل؟ وجار ابن الجوزي؟ والشخص الذي بنى بيت الذهبي؟ والنجّار الذي صنع أبواب منزل ابن حجر العسقلاني؟





قانون ١٧

﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: ٦٠].

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه»[(١)].

أعلمَ الله تعالى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن هناك من هو أعلم منه، رجلًا اسمه الخضر يجده في مجمع البحرين، فقال موسى لتلميذه يوشع بن نون: ﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ أي أني سأظل أسير حتى أبلغ هذا المكان المحدد أو أمضي حقبا! والحقب كما قال بعض أهل التأويل سبعون

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٨١).

سنة، وقيل: بل ثمانون، وقال قتادة أعوام غير محدودة!"[1].

لك أن تتخيّل كيف يقرر موسى قرارًا صادقًا، نقله الله في أصدق كتاب أن يظل الدهور الطويلة يسير بحثًا عن الخضر! لينهل من علمه!

يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعُدت أقطارهم وذلك كان دأب السلف الصالح وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام»[2].

اثبت أحد

لا تجعل هناك خيارًا ثالثًا لطموحك، اجعل خياريك: بلوغ الهدف، أو الاستمرار في طلبه!

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٥٢٨).
(٢) تفسير القرطبي (١١/ ١١).

ستعترضك العقبات، وستعرض لك الحاجات، وستستعرض عندك الرغبات! فاثبت أُحد!

كان عنترة بن شدّاد معروفًا ببأسه وشجاعته، فسأله أحدهم عن سرّ هذا الجَلَد، فقال له: هات يدك وخذ يدي! فعضّ كل واحد منهما يد صاحبه، واتفقا على أن من يسحب يده أوّلًا يكون المهزوم! فصابرا هنيهة، ثم سحب الرجل يده، فقال عنترة: بلغ بي من الوجع ما بلغ بك ولكنّي صابرت وقلت: سيسحب يده الآن.. الآن.. الآن! إلى أن سحبت يدك.. وبهذه الطريقة انتصرت على أعدائي..

لا علاقة إذن بين الوجع والجزع، فالجميع يتألّم، ولكن ليس الجميع ينهزم، فاثبت أحد.

بيع البقدونس

إذا نظرنا إلى سجل حاتم الطائي في الكرم، وجدنا الحاجة إلى المال تعرض له كما تعرض لغيره، ولكنّ نفسه المتطلّعة إلى معالي الأمور جعلت الحاجة مع السخاء عنده مقدّمة على الغنى مع اللؤم!

نظريّة حاتم هذه هي التي جعلتنا الآن نتحدث عنه، ولا نتحدّث عن جاره اللصيق بيته ببيته.

وجعلتنا نذكر من نذكرهم من رجالات التاريخ، في الوقت الذي لا نعرف فيه أسماء إخوانهم، أو آباء الكثير منهم!

ما اسم صديق الإمام أبي حنيفة في طفولته؟ وابن خالة أحمد بن حنبل؟ وجار ابن الجوزي؟ والشخص الذي بنى بيت الذهبي؟ والنجّار الذي صنع أبواب منزل ابن حجر العسقلاني؟ لقد ثقل على التاريخ الاحتفاظ بأسمائهم، وهي أسماء فقط! أما هؤلاء النجوم الساطعة، فنحن نعلم تفاصيل أوصافهم، وكيف كانوا يتحدثون! وألوان ثيابهم! وغزارة علمهم وفضلهم.

إن قانون ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ هو الذي صنع الفرق بين محمد بن إدريس وبائع البقدونس في بلدته، فقد كان هذا البائع يستغل وقته في بيع البقدونس في الوقت الذي كان فيه محمد بن إدريس منشغلًا بحضور دروس مالك بن أنس في مسجد رسول الله ﷺ.

أصحاب الهمم لديهم حاجة للنوم مثلنا، ورغبة في إزجاء الوقت باللعب والتفسّح، ويحبون الراحة والسفر وعدم الارتباط بالمقيّدات من أي نوع كانت؛ ولكنّهم جعلوا أهدافهم الطَموحة مقدَّمة على رغباتهم الجَموحة، وأجّلوا زمن الراحة لما بعد الإنجاز، لا لما قبله!

والدتي ـ حفظها الله – تقول دائمًا عبارة مُلهمة: (يا حيّ، اتعب تستريح!)

تذكّر: من لم تكن له بداية محرقة، لن تكون له نهاية مشرقة!

اتعب إذن، وقل لنفسك الملول:

تريدين لقيان المعالي رخيصة؟
ولا بدّ دون الشهد من إبر النحلِ

الرابعة والخمسون

واعلم أن أسمى المطالب، ونهاية المآرب طلب العلم، فالعلم نفي الجهل، ولا أفسد للتصورات، وأمحق للتطلعات من جهل يعشش في جمجمة!

لم يخلق الله جمجمتك لتملأها بالخرافات، والنكت السامجة، وكُناسات الأعمدة الصحفيّة غير الجادّة.

امسح تخاريف الجهل بالعلم الذي يجعلك ذكيًّا زكيا نابهًا، فلولا العلم لكان سيبويه نكرة في سياق التاريخ! ولكان الشافعي شخصًا عاديًا من سكّان مكة! يعيش على الشعر، ويحيا على الرماية، ويموت وهو في الرابعة والخمسين كما يموت ملايين البشر في الرابعة والخمسين دون أن يضيفوا إلى الدنيا شيئًا.

ولولا العلم لما حفظت الدنيا النووي وابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن رجب وابن كثير وابن حجر.

لولا العلم لما سمعنا بالطاهر بن عاشور، ولا بالسعديّ، ولا بعبد الرحمن المعلّمي، ولا بابن باز، وابن عثيمين، ولا ببكر أبو زيد.

إذن اجعل العلم هدفك، واطلب العلياء من خلاله، فالمال يفنى، والجاه يبلى، والعلم يبقى، ويبقيك حيّا مدى الأزمان.

وفي سياق العلم حُدثت عن رجلٍ معروف كان جنديًّا

على بوابة يفتحها للداخلين ويغلقها عن الخارجين، هذا عمله في الحياة!

ولكن عمله لا يتناسب وهمّته، فقرر إكمال دراسته، فواصلَ الليل بالنهار، في النهار يعمل، وبالليل يدرس، أنهى الثانوية، ثم انتسب في كلية الشريعة بجامعة الإمام، فأنهاها بامتياز، ثم قدّم على برنامج الماجستير بنفس الكليّة وأتمّه بامتياز، ثم قدّم على الدكتوراه ونالها بمرتبة الشرف، ثم فاجأ زملاءه في العمل بالدكتوراه! فكان الانبهار! ترك بوّابته، وتوجّه إلى بوابة العلم، وبات أستاذا جامعيًا!

البطل الهُمام

النهم ممقوت إلا في القراءة، والطمع مرفوض إلا في العلم، والإلحاح مزعج إلا في قرع أبواب المعالي..

وحفظنا في الصغر:

نفس عصام سوّدتْ عصاما
وعلمّته الكرّ والإقداما
وصيّرته بطلًا هُماما

يقول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ : «إن لي نفسا تواقة لم تتق إِلَى منزلَة فنالتها إِلَّا تاقت إِلَى مَا هِيَ أرفع مِنْهَا حَتَّى بلغت الْيَوْم الْمنزلَة الَّتِي لَيْسَ بعْدهَا منزلَة وَإِنَّهَا الْيَوْم قد تاقت الى الْجنَّة!»(1).

إذا هـمّ ألقـى بـين عينيـه عزمـه
ونكّب عن ذكر العواقب جانـبا

أنت مهمّتك أن تبذل وسعك، أن تسعى، ألا تتوقّف، أن تمضي حقبا، ثم بعد ذلك أغمض عينيك عن النتائج، فهي عند الله!

عـــــلي أن أســـعى وليـــــس
عـــــليّ إدراك النـــــجاح!

نحن متعبدون بالعمل، أما الجزاء فلسنا موعودين به في الدنيا، فكم من عالم لن يعرفه الناس إلّا في الآخرة! وكم من أسماء مكتوبة بالنور في فضاءات الجنّة، لم نكن في الدنيا نعرف أن الله قد خلق أصحابها.

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص: ٥٩).

هذا أويس القَرَني كان مستجاب الدعوة، لكلماته نور خاص، يقول أحدهم: أسمع الكلمة من أويس فأجد لها في قلبي ما لا أجده إذا سمعتها من غيره! أو كما قال، ولكن من هو أويس في ميزان زمنه؟ رجل مجهول يعيش في غبراء الناس! جيرانه لا يعرفون أنّه مجاب الدعوة، وأنّ النبي ﷺ أوصى عمر بن الخطاب أن يطلبه إنْ لقيه أنْ يدعوَ له!

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده
وليس عليه أن تتمّ المقاصدُ

بل لا تجعل من مقاصدك الدنيا، الدنيا تخصص لا يفهمه طلاب الآخرة! ولا يحسنونه.

إذن، اجعل هدفك العلياء، وطريقك الصبر، وشعارك ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾.



الخاتمة

وبعدُ..

فأرجو أن أكون قد وُفقِّت في كتابة هذه القوانين، وهذه الدروس المقتبسة من جذوة موسى عليه السلام، والتي بعثها ظل تلك الشجرة التي تولّى إليها في ذلك اليوم المليء بالمفاجآت..

ما زالت هناك دروس، وهدايات، وإضاءات في قصّة موسى عليه السلام، وفي آيات هذا الكتاب الخالد، والذي علينا أن نفعلَه؛ هو الاستهداء بهديها، وطلب أنوارها.. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم..

علي بن جابر الفيفي



إلى الظل

الفهرس